الفصل الرابع عشر

"رماد الذكريات"

نسرد في هذا الجزء من السيرة، تكملة أحداث رجوع العم من مصر، بعد ان استعاد الإمام فيصل بن تركي، عاصمة امارته (الرياض) مغادراً منفاه في مصر، ورجع إلى عشيرته في قلب جزيرة العرب. في الفصل السابق سردنا تفاصيل عديدة، عن تلك العودة وما واجهه في القصيم، من تحركات مشبوهة من قبل الأمير عبدالله بن ثنيان، الذي استولى على الحكم في البلاد، أثناء غياب الإمام في الخارج، وذلك بإزاحة الأمير خالد بن سعود عن الرئاسة كتابع للعثمانيين. ثم قيام الثنيان وجماعته بالتوجه نحو القصيم بعد تحصين الرياض، لمبايعة فيصل أو محاربته حسب الأحوال، ومنعه من دخولها رغم ما لديه من حشد المؤيدين لاستعادة الحكم، بصفته القائد الشرعي للمنطقة، والذي تؤيده غالبية أهالي البلاد وأعيانها. كان جد والدي رحمهما الله (عبدالله بن علي الخثلان) برفقة عدد غفير من الأسرة، ضمن القوات التي ساندت الإمام، وقد بين لولده زيد تفاصيل ذلك، حيث تجمعوا مع عشائر من قبيلة سبيع في الحائر، على بعد مسيرة ساعتين جنوب الرياض في انتظار التوجيهات. أما في غرب البلدة فكانت هناك جماعات مسلحة، من قبيلة مطير ومن عتيبة وقحطان الواسعة، كلهم متأهبون لاستقبال الإمام وتسهيل عودته للحكم. كما وصلت من الأحساء والقطيف جنود بقيادة السديري وبعضها يترأسها ابن بتال، جميعها تنتظر لحظة وصول الإمام لعاصمة بلاده. الكل في ترقب وقلق لعدم ورود أنباء عن موعد وصوله، وداخلهم الملل رغم ان الطقس بديع في برج الحمل، وتتوفر الكثير من النباتات لرعي الركائب والأغنام.

ذات يوم عم الاضطراب بين القوم المنتشرين في خُبر متفرقة حول الرياض، حيث جاءت أنباء كريهة من الشمال، مفادها ان الأمير الثنيان قد غرر به أبو عليان أمير بريدة (عناقر تميم) وأوغر صدره ضد الإمام فيصل. وأوصاه بعدم تسليمه الإمارة حيث هو أحق بها، وان أهل بريدة قادرون على صد كل من يعاديه، ويجب عليه الاستمرار في حكم البلاد، ومقاتلة كل من يعارضه! حينذاك عزم البعض على التراجع، حيث لا يريدون التدخل في نزاع بين ذرية سعود بن محمد بن مقرن، أو خلافات بين القصمان (بريدة وعنيزة) أو بينهم وحائل آل رشيد. عندها غادر المكان شراذم من أهل الفرع وبرك، مدعين ان قدر جم من النصب والتعب حل بهم، وقد اشتاقوا لأهلهم وديارهم. وبقي الجد ونفر من أسرته يتداولون في الأمر، وسبل دعم الإمام الشرعي للبلاد، حيث منذ القرن الماضي والحكم مستقر فيمن تبقى من نسل المؤسس محمد بن سعود، وهم ذرية ولديه عبدالعزيز

وعبدالله. وأشير للأحبة أنه بعد ذلك انقرضت كافة ذرية عبدالعزيز، رغم ان أحد أبنائه كان له عشرات الأولاد والأحفاد، وهو أبوشوارب (سعود الكبير) ثم الآن انقرضت كافة ذرية عبدالله، باستثناء تركي الذي له ثلاثة أولاد (فيصل وجلوي وعبدالله) وذريتهم هم من تبقى من نسل المؤسس الأول، رحم الله من مات وأرشد من بقي لما فيه صلاح البلاد والعباد. أشار أحد الحضور ان الثنيان ليس من ذرية المؤسس، وقد بويع لتولي الأمر لحين رجوع أهله، فلا يحق له ان يتشبث بالسلطة بعد عودة فيصل بن تركي. أثناء ذلك أقبل نجاب برسالة من عرينات رماح، يستنجدون السبعان ليهبوا لإنقاذ بنو عشيرتهم في عنيزة، حيث توعدهم أهل بريدة بالويل والثبور إذا لم يساندوا الثنيان.

عند ذاك رأت غالبية الجماعة وجوب ان يهبوا لنجدة عشيرتهم في عنيزة، والمشاركة في الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأملاكهم بالغالي والنفيس، وهرولوا نحو الشمال عدا شرذمة ادعت اصابتها بالوعثاء، وقررت العودة لأهلهم ومساكنهم وحلالهم. لما أشرفوا على جنوب المذنب التقاهم قوم قادمون من البكيرية، أفادوهم ان خلاف حدث بين الثنيان والأمير عبدالعزيز (بريدة) لذا قرر التوجه مسرعاً للرياض. استقر الصحب ومعهم الجد في ضواحي المذنب لأيام، حتى وصلتهم كتائب الإمام فيصل، في حشد كثيف من جنود القصيم (السبعان) بقيادة السُليم (الزامل) مع قوات أخرى من حائل، يرأسها عُبيد الرشيد نائباً عن أخيه الأكبر عبدالله. الذي اضطربت الأقوال حول سبب عودته لحائل، فمن قائل إنه توعك ثم اشتد عليه المرض، وقائل إنه لا يريد المساس بدماء آل سعود بن مقرن! بخاصة ان الإمام فيصل كان له الفضل الكبير في تعيينه أمير حائل، كما ان الثنيان هو من توسط له لدى خورشيد ليعيده للإمارة، بعد ان غادر فيصل للمنفى وتولى الأمير خالد الحكم. توجه كافة أهل واديي الفُرع وبرك للمبايعة حيث استبشروا بطيب حال الإمام، وبشاشته في لقائهم والطمأنينة التي تكسو محياه رغم سنوات المنفى الكريهة في مصر. لكنهم تضجروا بعدها من بقائهم في شظف الترحال، وشغفهم للعودة للعارض واكمال مهمتهم لاستعادة فيصل منصبه كحاكم لنجد، وبدا لهم ان الإمام ليس في عجلة من أمره. فهموا من أحد الخواص انه يرى حتمية دخوله للرياض، بدون إراقة الدماء حيث الثنيان مثل أرنب في جحر ضيق لا يسعه البقاء فيه طويلا، وسيضطر ان عاجلا أو آجلاً للفرار كما جرى في بريدة. جاءهم سبيعي يقال له قطنان صباح يوم لاحق، يحمل توجيه بالرحيل جنوباً للوشم، وغرب ثرمدا بنحو خمس ساعات، وجدوا مخيم بسيط فيه رجال من تميم، أشاروا عليهم بالبقاء هناك حتى اليوم التالي. أقبل عليهم رِكاب الإمام فيه عدد كبير من المقاتلين، وحشد غفير من العمال والخدم، بعضهم من بلوش الهند وأحباش ونوبيين ومصريين، لم يكترثوا بمن في المخيم، بل اتجهوا مهرولين شرقا ليصعدوا طويق من عقبة الحيسية. قبل الظهر قيل لهم ان لدى الإمام أشغال في بعض بلدات المحمل، ولا داع

لأن يكلفوا أنفسهم صعود التل، وعليهم التوجه نحو ضرمى ومنها إلى حاير سبيع، حتى تردهم تعليمات من رجال الإمام.

بعد أيام من نزولهم الحائر دخلهم الضجر، وخرج جماعة من صناديد آل خثلان لاستطلاع الحال في جنوب الرياض وغربها، كان معهم الجد عبدالله والتقوا مع خبرة من آل روق، كان من بينهم رجل معروف يقال له (ربيعان) دعوهم للجلوس. وعلموا منهم ان مكانهم على الضفة الشرقية للوادي، جوار الحبونية يتيح لهم التواصل مع أفراد من عشيرتهم داخل الرياض. وأنهم قد أرسلوا للإمام في سدوس، لإخباره ان الثنيان يجري تحصينات كثيفة لقصر الحكم، كما يخزن كميات وافرة من الطعام والسلاح والذخيرة، لكنه لم يبالي كثيراً بذلك. ادعى آخر ان بعض أهل البلدة وفروا له كافة سبل الرفاه، بل وزوجوه بإحدى الأميرات أمها من قرابتهم، ولما شككوا في روايته أكدها بأن الشابة بنت الأمير مشاري قاتل والد الإمام! سمعت في مجلس والدي في خمسينات القرن العشرين، أشخاص يؤيدون تلك الرواية التي استغربها البعض، وكان يرحمه الله يشكك في ذلك لكنه لا ينفيه، وأكد آخرون ذلك بالقول ان تلك الزيجة قد أسفرت عن إنجاب الإمام عبدالرحمن والد الملك عبد العزيز. وبين متحدث آخر ان ذلك ليس بمستبعد، حيث كان الإمام فيصل ذو شخصية سمحة، ولا صحة لما سرده البعض أنه قام بنفسه بقتل مشاري وهو أسير لديه، بل لما احضروا له جثمانه أمر بسرعة إكرامه، وصلى على جنازته وحضر دفنه في مقبرة جلقا (شلقا) شمال شرق الرياض آنذاك. قال آخر في المجلس، ان مصرع الأمير مشاري يشوبه كثير من الغموض، والشبهات حول دور سويد والرشيد، تماماً كما هو اضطراب الروايات حول اغتيال الإمام تركي. ومقولة "بندق (فرد) حمزة ثايرة فيك أو في خالك!" تدل على عدم موافقة مشاري على الجريمة، ناهيك بأن يكون هو من دبرها. وقال آخر إن تصرفات فيصل بن تركي تدل على النبل، ودماثة الخلق تجاه أسرة ابن عمته، ومن لا خير فيه للأقارب هل فيه خير للأباعد؟ وتساءل البعض حول مخاطرة فيصل بالاضطجاع مع ابنة قاتل أبيه، المقتول أثناء أو بعد القبض عليه، لكن جاءه الرد من أحدهم ان إدراك آل معمر عميق.

بعد يومين جاءهم نباء قرب وصول الإمام للرياض، وخرج أكثرهم نحو غذوانة لتلقيه، فوجدوا كتائب عديدة هناك مصطفة في نظام. وكان معه جمهرة من مرافقيه وخلفه فرق مسلحة، أكبرها بقيادة أخيه جلوي بها سبعان القصيم ورئيسهم الزامل وغيرهم، ثم مجموعة أخرى يقودها الرشيد (عُبيد) فيها قوم من قحاطين الشمال، من شمر والجبور وجندل وصخر، وتولى مقدمة سبعان العارض العريني. نزل الإمام وقرابته في صياح، وأحاطت كتائب المجاهدين بالرياض كالسوار بالمعصم، وظنوا انهم بذلك سيدخلون الذعر في قلب الثنيان لكنه بقي رابط الجأش. بل رفض ان يفتح البوابة لدخول الأمير جلوي، ليبحث معه المصالحة وحقن دماء المسلمين، وأصر ان لا يدخل العاصمة إلا ابن رشيد

وخمسة رفاق غير مسلحين. استمر التفاوض أربعة أيام لم تثمر، رغم العروض السخية التي قدمت للثنيان، مع ضمان سلامته ليقيم في الأحساء أو الحجاز أو العراق، مع مخصص سنوي جزل، لاتقاء المنازلة الحربية. وضعت ثلاثة مدافع من بقايا حرب الدرعية، في الجهة الغربية (جنوب) قرب المقيبرة للتهديد بدك الحوائط الطينية والباب الخشبي الصغير، لكن العناد والرفض استمر من داخل البلدة. ازداد العجاج الربيعي وبداء المزارعون يذرون ما حصدوه من الحنطة، وجاء رئيس بلدة منفوحة المجاورة، وعرض على فيصل مسكن واسع وثير، فغادر معه حيث زوجته الجديدة حفيدة إحدى عماته! وانتقل الجد مع بقية آل خثلان إلى معكال، جنوب دروازة دخنة في أرض صلبة قليلة الغبار، بينما بقي أكبر أبناء الإمام (عبدالله) يقود قوات الحصار. ويعلم الأحبة ان منفوحة مدينة عريقة منذ الجاهلية (الأعشى) وكانت تنافس الرياض قديماً، أما الأن فما هي سوى حي متوسط شمال الدائري (المحلق) الجنوبي (مخرج 20) بعد ان توسعت الرياض لتصبح في اتساع بعض الدول الصغيرة، ومعكال كانت قرية شمال منفوحة، وهي الأن مجرد طريق على الأعشى. ثم أرسل الإمام لولده عبدالله خطة تكليف أحد مماليكهم (زويد) المخلص الأمين لهم منذ عشرين سنة، ليرسل بعض الأعوان ليتسلقوا السور ليلاً، فقد تمكن بعض الخدم من استعمال محالات الآبار (بكرات رفع الدلاء) للنزول من الشاهق، والوصول لفيصل لإخباره ان القوم في الرياض قد مسهم الضر، ويلتمسون سبل الفرار من البلدة. كان الأمير عبدالله الثنيان في الداخل شجاع جسور، لكنه مقتر وغليظ الطباع، ولما ضيق عليهم الحصار حاول استمالة بعضهم بمنح المال الكثير لديه. لكن ذلك لم يجدي وقال له أحد أهل اليمامة "العلوفة في رجب" ولم يفهم ذلك المثل الذي يقولونه لمن يؤخر العطاء بعد فوات الأوان. حيث كانوا إذا أزمع أحدهم على الحج يعلف راحلته قبل السفر بشهور، حتى تتحمل وعثاء الطريق، أم من يجوعها ولا يقدم الطعام إلا عند قرب المسير بعد رمضان، فسيعاني الخيبة والفشل وتخلف ناقته.

كان زويد أحد مماليك الإمام سعود (أبو شوارب) منذ صغره، وهو من ذوي المعرفة والدهاء والوفاء للأسرة السعودية، وعلم ان خروج العمال والخدم من الرياض، سيجعل علية القوم داخلها في ضيق وحرج. رتب مع قائد ذلك الجناح (ابن الإمام) تدبير المستلزمات من حبال وسلالم، ونجح العشرات في الفرار من العاصمة المحاصرة ليلا. إلا أنه بعد أيام اكتشف الثنيان الأمر، ورتب جنوده للكمون أعلى الدراويز، وإطلاق النار على كل من يحاول التسلل للخارج. في الجهة الشمالية الغربية للسور (الظهرة) كانت الفرقة بقيادة ابن عم الإمام (ابراهيم بن عبدالله) الملقب صنيتان لشجاعته وثقل سمعه، وسنتحدث عنه وذريته في الفصول القادمة أثناء معارك الدلم وعنيزة ثم البكيرية، التي شارك فيه والدي بعد أكثر من ستين سنة. لقد قام آنذاك بتوجيه الرماية نحو جنود الثنيان، لتوفير الحماية للهاربين من جحيم الحصار، لكن ذلك لم يجدي حيث كانوا في أعلى

بوابات السور يقتنصون من يحاول التسلل. لما ضاق الحال ببعض المحاصرين قاموا بحفر نقب في الجدار الطيني، وباشروا الخروج منه مع نسائهم وأطفالهم، فأطلق عليهم جنود الثنيان نيران بنادقهم. عندها ثارت حمية زويد، ورغم تقدمه في السن وثقل حركته، إلا انه اندفع مع جماعة من رفاقه نحو الحائط، وأخذوا يصوبون رمايتهم نحو البغاة في الأعلى، لتوفير غطاء للفارين للابتعاد عن الخطر. أذن القائد (الأمير محمد) لفرقة من أهل جو الخضرمة (شرق الدلم) والحريق والقصيم، ان ينطلقوا لمساندة زويد ورجاله، لكن أحدهم صرخ قائلا "القاتل والمقتول في النار" مما أدخل الريبة في فكر بعض المقاتلين.

ضحى اليوم التالي قال الجد للجميع ان من تكلم البارحة، كان على غير صواب فهل يستوي من يدافع عن المستضعفين، من النساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة، ويفرون من جحيم الحصار، مع من يتربص للغدر بهم والاعتداء على الأبرياء؟ فصمتوا جميعاً لبرهة ثم تكلم أحد آل عليان في عنيزة، وأشار نحو نفر من آل بوعليان أهل بريدة، انهم من أوعز للثنيان بعدم التصالح مع الإمام، بل محاربته لمنعه من استعادة الحكم لما عاد من محبسه في مصر. ثم غدروا به وتخلوا عنه في ساعة الضيق، وهاهم الآن يلاحقون الإمام لسور الرياض، وينشرون الوهن بين جنوده لضعضعة الأمور ونشر الفتنة. نظر إليه أحد البوعليان شزراً وقال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون، وأكد أنهم يسعون للإصلاح بين الإمام وقريبه الثنيان وحقن الدماء، وان أهل الفتنة والطمع في الرئاسة عندكم. رد العنزي بغضب ان تميم بريدة هم أهل الفتن والغدر، والاستيلاء على السلطة بسفك دماء قرابتهم وجيرانهم، وخلال أكثر من مائتي سنة خلت تشاجروا وقاتلوا من أسسوا بريدة (آل الدريبي) ثم انقلبوا على قوم آخرين من عشيرتهم (الحجيلان) وفتكوا بهم لأجل السطو على أملاكهم والاستيلاء على البلدة قهراً وبسفك دماء القرابة. تدخل الجد وحثهم على ذكر الله والبعد عن اللغو، لكن مجاور له في المجلس من أمراء عنيزة السبعان (السُليم) حثه على عدم التدخل في جدالهم. فاستشاط البريداوي (أبوعليان) غضباً، ووبخ العنزي بحدة ورماه بأنه من قوم جنوب العراق، أصولهم من الروافض والفُرس، يدعون النسب لغير آبائهم، تارة هم المنتفق أو الظفير وأخرى من الإشراف أو تغلب لا يُعرف لهم أصل حميد! وزاد على ذلك بإيراد أبيات من شعر بنوتميم زمن الأمويين

إن الذي سمك السماء بنى لنا ******* بيتاً دعائمه أعز وأطولُ

إنا لنضرب رأس كل قبيلة ****** وأبوك خلف أتانه يتقمــلُ

وابن المراغة يدعي من دارم ****** والعبـد غير أبيـه يتنـحلُ

فغضب عليه العنزي وأنشد يهجوه

إذا ما مات ميت من تميم ***** فسرك أن يعيش فجئ بزادِ

بخبز أو بلحم أو بتمر ****** أو الشيء الملفف في البجادِ

عندها استشاط الجد غضباً ونهرهم طالبا الكف عن الأذى، وانصرف عنهم مزمجراً بوجوب نبذ التنابز والمماحكة، بما يسخط الله وينافي السنة. فلحقه رجل من سبعان الوشم راجياً أبو زيد تفهم طباع القصمان، وتساهلهم في هذه المقولات باعتبارها من الإخوانيات والملاطفة في المجالس.

عندما اشتد الظلام تبين ان زويد على اتصال مع رفاق له بالداخل، فقد توجه الجد مع خُبرته مقتربين من دروازة دخنة، فلاحظوا عمل جديد بديل لإحداث ثقب في الحائط الطيني، فقد قام بعض من بالداخل بسكب الزيت على خوخة الباب الخشبي. وبعد لحظات اشتعلت فيه النيران وحاول البعض رش الماء لإطفائها، لكن لم يستطع أحد الخروج وسط ألسنة اللهب، التي شملت كافة أرجاء البوابة. ثم اندفعت فرقة من المماليك تطلق نيران بنادقها نحو حرس الدروازة، فصدرت أوامر القيادة وتوجه الجد مع الرفاق مهرولين في الظلام نحو النيران، لكن طلقات البنادق من جنود الثنيان تزايدت، وهم متمترسون خلف السواتر. وسقط بعض المصابين قبل الوصول للبوابة. تخندق المهاجمون خلف الأشجار لاتقاء رماية الحرس، وحاول البعض الزحف نحو البوابة بلا طائل، فبقوا في كمون لنحو ساعتين يتبادلون الطلقات مع الجنود، حتى لاحظ الجد حشد غفير في المؤخرة، يزحف ببطء في جنح الظلام. لما وصلوا جوارهم تعرفوا على انهم من رجال السديري في الأحساء، بعضهم قحاطين الشرق الواسع، منهم هواجر ومرية وقليل من العجمان ومعهم بنادق حديثة قوية. في الهزيع الأخير من الليل بزغ القمر وهو قرب المحاق، فتمكنوا من رؤية معالم المكان والزراعات المحيطة، إلا ان الجد عبدالله حذر قرابته ان حرس الجدار سيرونهم من على مبعدة. لذا اقترح ان يتوجهوا للميمنة حيث بستان كبير ملاصق للحائط، به أشجار كثيرة أصاب بعضها الإهمال، وحوله جدار غير مرتفع يصد المواشي وليس الرجال (وهو قرب مقر المحكمة حالياً أيها الأحبة) ويصلح للمكوث فيه لحين سكون الرمي.

بعدها وفي لحظة واحدة التهب محيط الرياض برماية كثيفة، من الجهات الأربع بخاصة الناحية الشرقية صوب وادي الوتر، ثم جاءت إشارة التقدم نحو البوابة شبه المحترقة. انطلقت كتائب من الأشاوس لتتعامل مع جنود الثنيان المتحصنين حول الدروازة وأعلاها، مما أصاب أكثرهم بالرعب ففروا لداخل البلدة في السكك الضيقة، ومن هم في الأعلى ساروا بخفة على حواف السور للنجاة بأنفسهم. اندفعت فرقة الجد نحو البوابة بعد انحسار أي مقاومة، وتمكنوا من دخول البلدة وسط تهليل وتكبير وانتخاء من قوات الإمام، ثم

توجه البعض نحو أحد المنازل الكبيرة القريبة من الحائط، للكمون فيه ريثما يلتقطوا أنفاسهم، ويتأهبوا لصد أي هجمة مضادة من رجال الثنيان. لكن الفجر اقترب وما زال السكون يخيم على المكان، ولم يعلم الجد سبب اطباق الصمت، وأين توجهت الحشود الكثيفة التي كانوا يرافقونها، وأخذ يترقب وصول أوامر من القيادة، لكن ظهر له ان الغالبية منهكة من الالتحام الليلي، وربما اتجهوا لأخذ قسط من الراحة. وبينما هو يغالب النعاس سمع مع زملائه، صراخ طفل في الطابق الأعلى من ذلك المنزل الذي يؤويهم، ففزع أربعة منهم للصعود لاستكشاف الأمر، وعادوا بنبآء وجود عدد من الخادمات، في حالة من الذعر الشديد من هول ما سمعوه من الرماية طيلة الليل. صعد نحوهم أحد مماليك الأمير محمد من أهل الرياض، وعرفهم بنفسه وقرابته من النسوة فسكنت خواطرهم وأرسلوا لهم طعام، كانوا في أشد الحاجة له كما أخبروهم بمكان المياه. أرادوا ان يخلدوا للنوم بعد مشقة المساهرة والقتال، لكن إحدى النسوة صاحت عليهم انها شاهدتهم ينحرون ناقتين يوزعونها على الحضور، وعلى البعض التوجه لأخذ بعض اللحم، حتى يطبخوا لهم عشاء دسم، لكنهم لما أحضروه تبين أنه قاسي ومن بعير هرش، ولن يجهز إلا قبل المغرب. في الهزيع الأول من الليل جلسوا يتسامرون، بعد وجبة دسمة لم يذوقوا مثلها منذ غادروا بلدتهم، فيها قزح وتوابل طيبة وحوف ماهر! تساءل أحدهم عن الإمام فيصل وعما إذا كان في الرياض أو منفوحة، ولم يقطع أي منهم بحقيقة فزاد التساؤل عمن يتولى القيادة، وما مصير الثنيان بعد نجاح اقتحام البلدة؟

أمضى الجد عبدالله بن علي ورفاقه أيام قلقة لكنها ساكنة، وعلموا ان دارهم تلك ليست منزل الشيخ علي بن محمد بن عبدالوهاب، بل ذلك يقع عنهم جنوباً قرب بئر دخنة الغزيرة المياه، والتي يتصاعد من أعلاها دخان من بخار الماء (ضباب) زمن الشتاء. وكان قد انتقل إليها من الدرعية في آخر سنين والده، لما اختلف معه وعدد من إخوته، لمعارضته تكفير من لا يوافق الحاكم في كل أموره سلمياً (الموالاة) ثم استحلال دمه وماله. وبقي على آرائه النابذة لتكفير أهل القبلة، زمن الإمام عبدالعزيز بن محمد ثم ولده سعود ثم حفيده عبدالله، وسكن ذاك المنزل أثناء حصار الباشا للدرعية، وقام بدور إيجابي مع المعمر في التوصل لهدنة لحقن دماء النساء والأطفال. اقترح اثنان من الصحب التجول داخل البلدة، ما دامت الأمور ساكنة لكن الجد أبى، مالم تصلهم أوامر بذلك من القيادة (رجال الأمير محمد) لكنهم ذهبوا وعادوا ومعهم بعض الطعام والمتاع، الذي خزنه الثنيان لزمن الحصار الطويل. في ضحى الجمعة سمع رفيق له أذان، وكان الجد مشتاق لأداء الفريضة التي لم يعد لهم رخصة تركها، بعد ان سكنوا الدار وعندهم خادمات يقمن بشؤونهم، كما ان قريبه الذي حاول الذهاب لسوق البلدة، أفاده ان الجامع مغلق لقربه من القصر. كانوا نحو خمسين رجلا وسمعوا خطبتين موجزتين، وهم في خوف من ان يباغتهم قناص من أهل الباطل! بعد أيام وردت لهم توجيهات للذهاب نحو جنوب القصر،

في ثياب الحرب وبكامل العدة، وهناك أمروهم بالاصطفاف في دائرة تحيط بالمكان إحاطة السوار بالمعصم. وأخذ رجال الإمام من القرابة والمماليك، يهزجون بأناشيد حربية ويعرضون قوتهم وركائبهم وسلاحهم، فيما قد يسمى "رقصة الهيبة" التي تدخل الذعر والفزع في قلوب الخصوم. كان الجد في ترقب ووجل خشية ان يقوم جنود الثنيان بقصفهم، خاصة انهم في ساحة مكشوفة لسترة سطح القصر وشرفاتها، لكنهم أخبروه ان هناك مراسلات مع الداخل ويؤمل ان تؤدي الهدنة إلى مصالحة؟ على حين غرة بداء رجال الأمير عبدالله بن فيصل بن تركي، في اطلاق نيران بنادقهم صوب السماء، ثم لعلع المكان بدخان وضجيج البارود والمعدن، لما أمروا الجميع بفتح النيران نحو الجو الأعلى. انسد الأفق بالطيور التي هاجت مذعورة من أكنانها، ولاحظ الجد بعض النوافذ تتجافى، مما أدراه ان البيوت المجاورة ما زالت مسكونة رغم الحصار، فربما استعد القوم منذ الشهر الماضي بتخزين الطعام والماء والمستلزمات.

في المساء تسامر الجد مع البعض حول ما ستتوجه نحوه هذه المحاصرة، فقال رفيق لهم إن الحوار بين الإمام والأمير كاد يصل لنهاية مفيدة، لولا تدخل المسيئين لتحريض الثنيان على طلب تولي إمارة الأحساء، والاستقلال بكافة شؤونها بمفرده لكن فيصل رفض. ليلة الجمعة التالية جاء مندوب الأمير، لتحريضهم على التوجه للصلاة في الجامع الكبير ظهر الغد، ومعهم سلاح خفيف وفي ملابس مجلس الحاكم. بعد الفريضة خرج الجد من الباب الجنوبي، واندهش من كثرة عدد المقاتلين حيث يقاربون الألف. وبعد اصطفافهم بقليل خرج الإمام فيصل من الباب الغربي، تحيط به ثلة من حرس مدججين بالسلاح، ومعه أولاده الكبار (عبدالله ومحمد وسعود) والصغار وأخويه جلوي وعبدالله وأبناء عمه إبراهيم بن عبدالله. وبجواره عدد من حفدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وعبيد بن رشيد والسديري وعدد من شيوخ القبائل، ولفيف من مماليكه وخدمه من العرب والحبوش والبلوش. تكلم فيهم بصوت جهوري سمع الجد معظمه رغم البعد، أثنى فيه على الخالق وبين حرصه على تفادي إراقة الدماء، وحث الجميع على نبذ النزاع، وترك الأمر لأهله الذين بايعتهم الخاصة والعامة منذ عشر سنين، وأكثر من تحصنوا داخل ذاك القصر في رقابهم البيعة السابقة، قبل وقوعه في الأسر، وها قد عاد وليس هناك ما يستدعي أي تنازع. ظهر من جهة السوق شرق الجامع ثلة من الرجال الأشداء، يحملون سلالم خشبية وحبال مقاط، وتحدث واحد منهم لرجل من المحاصرين، وحذره انهم سيصعدون مع الرفاق المسلحين ويقضون عليهم، مالم يخرجوا في أمان الإمام. وتلى ذلك فتح أحد الأبواب الصغيرة فولج منه ثلاثة من الأعيان المصاحبين للقادة، والذين كانوا على علاقة حميمة مع الثنيان في الماضي. ولما اقترب وقت العصر أرخصوا لأهل الحريق، وأكثر أهل القرى المجاورة للرياض بالعودة لمساكنهم.

ظهر اليوم التالي جلس الرفاق يتحاورون حول أحداث الأمس، وما قد تكون أسفرت عنه من مصالحة أو تنازع، واكد لهم واحد من كبار آل خثلان، ان المحاصرين ليس لهم خيار سوى التسليم. وان بعض خدمه لهم قرابة في معية خواص الإمام فيصل، وأخبروه ان الأمر محسوم فقد بداء البعض يتسللون لواذا من القصر، وسينتهي الأمر بالثنيان وليس معه سوى نفر قليل. وقال آخر ان فيصل بن تركي له تجربة سابقة، لما حاصر مشاري قبل عشر سنين، حتى انفض القوم من حوله وانتهى الحال بوفاته أو مصرعه؟ ولابد ان الثنيان وصحبه سيعتبرون من ذلك، بخاصة ان كلاهما ليسوا من ذرية محمد بن سعود، بل من ذرية إخوته (آل مقرن) المعروفين. أكد البعض ان المسألة حاليا هي تحقيق مطالب المحاصرين للحصول على المناصب العليا، أو قدر كبير من الأموال تعينهم على استعادة بعض النفوذ بعد خروجهم من القصر. تساءل البعض عن ذلك الشيخ الوقور على يمين الإمام، فرد عليه انه عبد الرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فتكلم الجد وكان صامتاً إلا من ذكر الله، ونفى ذلك قطعياً حيث يعرفه جيداً، فهو يسكن وادي نعام منذ غادر خورشيد باشا نجد. وقد اعتزل الخوض في النزاع بين الأمير خالد والثنيان في تلك الحقبة، وأمضى السنين يتردد بين أماكنه في الحريق والحوطة، يقوم بالتدريس والإفتاء وحل النزاعات، ولا يرى أنه سيحضر للرياض ما دام النزاع قائم فيها.

استفسر رجل من الجالسين عن الفرق بين آل سعود وآل مقرن، فقيل له أنهم جميعاً من سلالة مانع المريدي، الذي أسس الدرعية قبل قرون (المليبيد وغصيبة) لكن الذي أسس إمارة الدرعية الحديثة هو محمد بن سعود، وذريته هم الذين يقال لهم آل سعود. لكن أبناء عمومته الثلاثة (مشاري وثنيان وفرحان) دعموه بقوة، وهم ذرية سعود بن محمد بن مقرن، ويقال لهم آل مقرن ولهم دور بارز في الإمارة الأولى بالدرعية، ثم في الإمارة الثانية بالرياض. ولما بدا أن الرجل لم يفهم ذلك بدقة، بين له ان الحكام (آنذاك) ينحدرون من ثلاثة فروع، أولها ذرية عبدالعزيز أكبر أبناء المؤسس (الإمام محمد بن سعود) الذي تولى إمارة الدرعية في فترة حرجة، حيث تزايدت النزاعات مع الجيران مثل الدغيثر في أبا الكباش، والمعمر (طوق وخرفاش) في العيينة، أو مع البعيدين في الأحساء (العريعر الخوالد) أتباع والي البصرة العثماني. وكان عبدالعزيز خير موطد لحكم أبيه وذو شخصية سمحة، وبعد اغتياله تولى الحكم ولده سعود، الإمام ذو الحزم والقوة فوسع حدود إمارة الدرعية، حتى شمل نفوذها معظم أرجاء جزيرة العرب. فانبرى رجل من أهل الحريق ينقد تلك الحقبة، ووصفها بأنها زمن التكفير والقتل، حيث تخرج فرق مسلحة من البسطاء لتمتحن قوة التوحيد في نفوس الناس. فبعضهم على مستوى فهم محدود، يسألون العامة عن توحيد الألوهية والربوبية، فإذا قال رجل أنه على توحيد الألوهية، ردوا عليه ان ذلك مثل ايمان أبو جهل الكافر، فقتلوه وسلبوا ما معه. أما إذا قال انه على توحيد الربوبية فهو كافر مثل أبو لهب وبطشوا به، أما إذا قال إنه على كلاهما فهو منافق

في الدرك الأسفل من النار، يستحلون دمه وماله. وهم بذلك مثل خوارج الروافض (فاطمية قرامطة) الذين قتلوا الحجاج في المسجد الحرام، ويستخدمون التكفير حجة ضد من لا يرضخ لرغبات زعيمهم، أما التوحيد الحقيقي فهو مثل النية محله القلب، لا تكشفه الأسئلة الشفوية. عندها اعترض الجد على أقواله، وبين كيف ان الدرعية كانت عاصمة "دعوة التوحيد" ونبذ البدع المخالفة للشرع الإسلامي الحنيف. لكن الحريقي أصر على رأيه، وسأل الله ان لا يعيد ممارسات تلك الحقبة المظلمة، فمنذ بدايتها عارض أساليبها التكفيرية كثير من الناس، منهم قرابة صاحبي التحالف (ابن سعود وابن عبدالوهاب) مثل ابن معمر الذي قتل في مصلاه. كما قُتل ابن غريب (صهر الوهابي) بوحشية، لاعتراضه على ممارسة تكفير أهل القبلة لأسباب واهية، وابن فيروز الحنبلي الإحسائي (قريبه أيضاً) اضطر للهرب للعراق للنجاة بحياته، ومثله علي أحد أبناء الشيخ الذي نفي من الدرعية. وأسواء من ذلك تكفير بلدات بأكملها، بمن فيها من نساء وأطفال وشيوخ لم يشهروا السلاح، لكنهم قتلوا جماعياً وسلبت أموالهم وحليهم. وفي زمن الإمام سعود بن عبدالعزيز، سفكت دماء كثيرة وسطا الخوارج على أقوام في بلدات نجد، بل وطال ذلك بعض أبناء أبو الشوارب نفسه. كما انبرى بعضهم لصد قافلة والدة خليفة المسلمين، القادمة من إسطنبول للحج بذرائع واهية، ثم أخذ النفائس من جوار اللحد الشريف للمصطفى عليه الصلاة والسلام وجلبها للدرعية. مما أثار حنق العثمانية وهجومهم عليها وتدميرها، وأخذ رئيسها (الإمام عبدالله بن سعود) للمشنقة في تركيا. اعترض غالبية الحاضرين على أقواله، وقالوا إنه يعتمد على معلومات وأقاويل غير صحيحة، يروج لها المرجفون وأعداء حركة نبذ البدع.

أصر الرجل على رأيه رغم ذلك، وطلب منهم إتمام حديثه عن بيان الفرع الثاني من آل سعود، وهم ذرية عبدالله ابن محمد بن سعود، الأخ الوحيد المتبقي من إخوة الإمام عبد العزيز بن محمد، حيث مات البقية في حروب الدرعية والرياض التي استمرت ربع قرن. كان الأمير عبد الله هذا مغاير كلياً لطباع أخيه وولده سعود، يبغض تكفير أهل القبلة على الصغائر، وغير مولع بسفك دماء الأبرياء، وعندما جاء

الكردي الرافضي متخفيا، لاغتيال الإمام عبد العزيز في المسجد، كان عبدالله علي يمينه ساجداً ولما سمع الصرخة هب لإنقاذ أخيه، لكن المنية عاجلته فحضر ولده سعود (أبو الشوارب) مهرولا من قصره، لمنع من أرادوا مبايعة عبدالله ليكون إماماً لبلاد الدرعية وجعل نفسه هو الإمام، بل وأساء معاملة عمه وحرض بعض خدمه للادعاء أنه مساهم في الاغتيال. وأضاف الرجل ان الأمير عبدالله كان دمث الاخلاق، سخي النفس سمح الطباع ولما أرسله والده لتأديب بعض الجناة في الحريق، التزم بالحكم الشرعي ولم يعاقب سوى من كانت لهم مشاركة ثابتة في الجرائم. أما ابن أخيه سعود فقد كان يأخذ الناس بالفظاظة والغلظة، ولا يتورع عن قتل كل من يظن في خاطره ان سيماه غير

محببة لديه، أو لانحراف كلامه فهو يقتل بالشبهة. بل وزاد في عنفه لما نفى عمه إلى ضرما، وحينما زادت جرائم سعود أرسلت الدولة العثمانية السلاح والمال والرجال لإخراجه من الحجاز، كانوا يلقبونه "سعود كبير الخوارج" أما البادية فيسمونه "أبو الشوارب" لعظمهما مخالفة للسنة. ولما اتجه الغزاة للحناكية، أصيب بالغصة ومات مبطونا وهو يحدق في الألماسة الملعونة (كوكب دري) التي أخذها من الحرم النبوي، وكانت في علبتها على منضدة في قصر ابنته. ولما تداولوا بشأن من سيخلفه، اقترح النابهون ألا يتولى الزعامة أحد من اخوته أو بنيه الكُثر، حيث هم مسؤولون عن الجرائم التي حدثت، واقترح بعض من آل مقرن وسعود والشيخ محمد، أن يتولاها أحد ذرية الأمير عبدالله بن محمد بن سعود، الذي لم تكن له أي مشاركة في الأعمال الهوجاء التي قام بها بعض غوغاء الدرعية، ويعتقد أناس ان وفاته بعد ذلك بشهور قليلة كانت مدبرة، فقد نفي قبلها إلى ضرماء، ثم لما توجه غربا للعالية لقي حتفه. كما ان نفر من أبناء سعود (أبو شوارب) أصروا على بقاء السلطة في ذرية عبدالعزيز بن محمد، حتى تسنح لهم فرصة لاحقة ليستولوا عليها من إخوتهم أو أعمامهم. فتولى رئاسة الدرعية وملحقاتها المترامية الأطراف، أكبر إخوتهم الذي كان ذو شجاعة وحسن خلق ويبغض سفك الدماء، لكنه غير جيد التدبير والحنكة وبعد النظر. فأجرى مصالحة مع العثمانية وعساكرهم، من الترك ومصر والشام والمغرب، كي يتنازل عن سلطته في الحجاز والقصيم ويكتفي بنجد والأحساء. لكن بعد شهور أجبره الرعاع على نقض ذلك، فصدرت أوامر إسطنبول للزحف نحو الدرعية وتدميرها، واقتيد الإمام عبدالله بن سعود هذا للمشنقة، بعد استسلامه للباشا لينقذ أرواح السكان.

مرة أخرى تعالت أصوات المعترضين على أقوال الرجل، وأنه يقدم أراء شخصية متطرفة وليست حقائق مؤكدة، لكن أحد شيوخ آل خثلان قال لجد والدي ان يستمعوا لتتمة سرد الرجل. الذي أكمل بالقول ان عهد ذرية الإمام عبدالعزيز كان رديء، وجلب الكارثة على البلاد والعباد، ولم تكد الدرعية تتنفس الصعداء بعد سنة الحصار، أثناء حكم ابن معمر لها إلا وبرز (مشاري) أحد أبناء أبو الشوارب كثيرو العدد قليلو البركة، فاراً من سجن الترك وحكم الدرعية شبه المهدمة. إلا ان ذلك لم يدم طويلا فقد أثار استياء معظم أهل العارض، بتصرفاته القاسية والمضطربة فكرهوه، وحدثت مصادمات معهم ومع المعمر انتهت بمصرع كليهما. وفي تلك الحقبة ظهر رجل من حفدة الإمام محمد بن سعود، هو الأمير تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، سكن أعالي جبال الحريق أثناء انفلاته من بطش الترك. وأحبه الجميع لخصاله الحميدة فتزعم البلاد النجدية، ونقل العاصمة إلى الرياض، وساد السكون والرخاء الديار واطمأنت النفوس، ثم تولى الحكم بعده ابنه الإمام فيصل، الذي لم يكد يمضي ثلاث سنوات، إلا وبرز من مصر أحد أبناء أبو شوارب، الذي تشرب هناك بالطباع الرديئة، وجاء بصحبة حشد من عساكر الدولة

العثمانية، للقضاء على حكم فيصل. كانت تلك القوات بقيادة إسماعيل بيه، ويتخذ الأمير خالد (ولد سعود أبو شوارب) ستار لكي يضمن قبول أهل نجد بسيطرته عليهم. إلا ان قومنا كرهوه وسموه الحبشي، حيث كان داكن البشرة من أمه الزنجية، التي تسرى بها أبوه وحملت بذاك الغلام الذي كره أهلنا طباعه. ولما جاء لواديي الفُرع وبرك حاربه أهلنا وهزموه، فأرسل والي مصر مدد من عساكر العثمانية، وقام خورشيد بالقبض على الإمام ونفيه ثانية لمصر. إلا انه بعد مغادرة العساكر، بقي خالد (الحبشي) مكروهاً من الناس، فانبرى له ابن ثنيان وقاومه ففر هارباً عند الشريف. وارتضى أهل نجد بحكم الثنيان مؤقتا، فلما عاد فيصل نصحوه بتسليم الحكم له، ووافق وذهب لبريدة لذلك، لكن أميرها غرر به وحثه على التشبث بالسلطة، فها نحن الآن نحاصره حتى يذعن للحق، فدعا الجميع الله ان يؤيد فيصل ويرشده للصلاح. تحدث رجل من الحضور مؤيداً ما قيل عن قسوة الإمام سعود، وأكد ان والده سجن بعد هجوم أنفار من زبانية أبو شوارب، على قافلة تجارتهم القادمة من شرق الخرج، وصادروا بضاعتهم وقتلوا وجرحوا البعض، وحبسوهم في فناء للدواب بلا طعام وماء كافي، ولما مر بهم الطاغية صاحوا يشتكون، فرد عليهم بقوله "إنا كذلك نفعل بالمجرمين" وأمرهم بالسكوت بقوله "اخسأوا فيها ولا تكلمون" وسأل الله ان ينتقم منه. تحدث آخر بالقول ان على الجميع الحذر من الثقة في غير موضعها، فمن يضمن ان حفدة ابني الإمام محمد بن سعود، سواء عبدالعزيز أو عبدالله سوف يختلف بعضهم عن بعض؟ ولا نريد ان نؤمل الكثير من مجرد التبديل، مثل القول "كلما جاءت أمة لعنت أختها" فقد لا تختلف ذرية السلالة عن الأخرى، إلا في الشكل. جابهه الكثير بالاعتراض على قوله، فقال أحدهم ان شتان بين الثرى والثريا، فلم نعرف عن إخوة أو ذرية سعود سوى القسوة والبطش والفظاظة. أما ذرية تركي بن عبدالله وإخوته، فلم نرى منهم سوى التسامح والعدالة والرشاد، وهاهم في ساحة الجامع علامات على ذلك. فإن الإمام فيصل رمز للورع والتقوى، وابنه عبدالله رافقه في مصر سنين، لم يعرف عنه ارتياد مواخير الفواحش هو وإخوته، وحتى ابنه الصغير (سعود) لم يتجاوز العشر إلا بسنوات قليلة، لا تبدو عليه سوى معالم الصلاح والإخلاص والنجابة والفطنة والشجاعة. وإخوته (جلوي وعبدالله) رجال حزم وروية، اما بنو أعمامه (إبراهيم وسعد ومحمد وزيد) فهم منبر حسن التدبير والشجاعة والسكون. ثم أنشدهم:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ***** ولا سـراة إذا جهالـهم سـادوا

إذا تولــى ســراة القــوم أمـرهـم نما ***** على ذاك أمرُ القوم فازدادوا

لهذا يجب ان لا تسند أمور الحكم إلا لذوي العلو، في الورع والحكمة والحصافة، حتى تسير أمور البلاد على خير وجه.

بعد مداولات حول المقارنة بين فروع أرومة آل سعود، انتقل الرجل للحديث عن الفرع الثالث من آل مقرن، وهم ليسوا من ذرية الإمام محمد بن سعود المؤسس، بل من ذرية اخوته الثلاثة (ثنيان ومشاري وفرحان) الذين ساندوا أخاهم في تقوية إمارة الدرعية، بخاصة الضرير ذو الرأي الحكيم، الذي دعم تأسيس حركة الإصلاح والتوحيد. كما استمر أبنائهم في مؤازرة النضال ضد أعداء الدرعية، وإن كان أكثرهم من النبهاء الصالحين، إلا ان بعضهم كانت لديه طموحات غير طيبة للاستيلاء على الحكم. مثل مشاري الذي قتل خاله الإمام تركي، وهذا ثنيان الذي يحاصره الإمام فيصل الآن، بعد ان رفض الالتزام بالبيعة السابقة له. ثم أكد الرجل للحضور شرعية تولي فيصل الحكم، ووجوب الاستمرار في دعمه للتخلص من قريبه الثنيان، الذي ما زال يتشبث بالسلطة بدون وجه حق. وقبل ان يكمل حديثه دخل عليهم بشير مسرع، يقول ان الأمر قد حسم وقد أصبح الأمير عبدالله الثنيان في قبضة رجال الإمام، ثم توالت الأنباء عن ملابسات ذلك. فمن قائل ان مصالحة تمت بينهما، وقيل بل قفز بعض جنود فيصل للقصر وقبضوا عليه، وخبر آخر أنه خرج بعد العصر مع ثلاثة من أعوانه وهو رابعهم، وهم في لباس منكر فعرفهم أحد الحرس وأمسكوا بهم، وأكد البعض أن الثنيان غافل المحاصرين بعد منتصف الليل للفرار، لكنهم لاحقوه وأمسكوا بتلابيبه وسلموه للإمام فيصل!

بعد يومين جاءتهم دعوة من أحد رجال الإمام، لحضور وليمة عشاء بعد صلاة العصر، في ساحة القصر الشمالية قرب الجامع، وبعدها اصطف كافة القوم من جنوب العارض، وسلموا على الإمام فيصل وجددوا البيعة له، وأذن لهم في الانصراف لبلادهم. وهناك لقي الجد عبدالله بن علي بن حمد، مرسول قادم من عند ولده زيد في مصر، يحمل صرة من الذهب وتصحبه ركائب محملة ببضاعة من بلاد الشنقيط والتكرور، مع توصية بشراء أراضي على أطراف الحريق قريبة من بطن الوادي وآمنة من الفيضان. كما أرسل يطلبه ان يتزوج حيث ان العلاج قد يستطيل، وهو يتوق لرؤية إخوة له! ومع ذلك بعض الأدوية لعلاج شيخوخة جده علي، وأفادهم ان أحوال أهل نجد في مصر ساءت قليلا، بعد مغادرة الإمام فيصل في ظرف غامض. حينذاك كان عم والدي (زيد بن عبدالله بن علي) ما يزال في مصر، لدواعي العلاج والتجارة والعمل، كما بينا في الفصل السابق، وعلى علاقة طفيفة مع بعض أفراد أسرة الباشا الألباني، وعلاقة وثيقة مع أناس من آل سعود وآل الشيخ وبعض السبعان ونفر من قبائل وسط وغرب جزيرة العرب. ورغم ان عدد كبير من النجديين غادروا مصر بعد ذهاب الإمام فيصل، إلا ان نفر أكثر بقوا فيها لما تتميز به من أمن ورخاء، بفضل الله الذي وهبها ذلك النهر (اليم) العظيم، يجري في شرق الصحراء العظمي ويوفر لمن حوله رغد العيش.

لقد لاحظ العم ان المصريين رغم هواهم بالمذهب الشافعي ومقامه، إلا انهم انجذبوا لدعوة ونصائح النجديين، لما لاحظوا عليهم الإخلاص والنزاهة، مع ان عامتهم يرون

الحنابلة أهل تزمت وتحوط وتشدد. وبخاصة الشيخ عبد الرحمن بن حسن، الذي عاد للرياض قبل سنوات من قدوم العم، ومن قبله عمه الشيخ علي بن محمد الذي توفي هناك. إلا انه آنذاك كان في مصر شاب ورع من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب (عبداللطيف بن عبد الرحمن) عليه سمت ووقار، وآثر ان يبقى في مصر بعد مغادرة والده، حيث تزوج وأنجب وله أملاك. كان العم يحضر بعض ندواته، وتعرف فيها على عدد من خيرة رجال مصر ذوي الورع والتقوى، كما كانت تحضر عنده نسوة بعض الأكابر خلف الستار. في مسجد المطرية قرب مسكنه طلبوا من العم الخطابة والإمامة، والقاء بعض المواعظ بعد فريضة الفجر، وبعد شهور جاءه أحد المصلين، الذي لاحظ من ضيق عينيه أنه من أصول قبطية، وطلب الانفراد به لمناقشة أمر ما. قال له الرجل انه اعتنق الإسلام قبل سنوات قليلة، وقد سرته طريقة القائه للدروس، ويود ان يدعو بعض قرابته من القبط، ليوضح لهم "موجز عام لدين الإسلام" عسى الله ان يهدي أحدهم للملة الرشيدة. فاعتذر منه بالقول ان مسلمو مصر لا يكادون يتقبلون حديثه، ويتهمون جماعته انهم حنابلة متزمتون، يفتون بما ينفر الناس عن الدين، ويكفرون على النوايا القلبية (التوحيد) ويقتلون على الشبهة، فكيف بما يتهمنا به النصارى؟ لكن الرجل أصر عليه ان يبين للناس خلاف ذلك، وان سماحته وطيب قوله ستجعل بعضهم يرون الجانب الصحيح للإسلام، وقد يهدي الله به أحدهم فهو خير من حمر النعم.

بعد تردد بداء يجالس نفر منهم، وكان يحرص على ارشاد الناس للهداية، فذلك خير من حمر النعم. استهل مداولته معهم بتوضيح ان الإسلام يدعو لنبذ عبادة الأوثان، وإخلاص الطاعة للرب على المنهج الذي جاء به رسله الكرام، منذ نوح ثم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً السلام. وانه يرشد البشر للعدل والإحسان وايتاء ذوي القربى، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والسيئات، وأعماله الأساسية من صلاة وصيام وصدقة وحج، وهي موجودة بشكل ما في مذهب القبط النصارى. سار الأمر على منوال طيب لبضعة دروس، لكن ذات يوم ذكر لهم ان المسيح عيسى بن مريم، جاء لتنقية الإيمان مما أدخله عليه بعض الأحبار اليهود من بدع، وان محمد جاء ليعيد للمؤمنين صفاء العقيدة، التي كان عليها خليل الله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام. فلاحظ نظرات شائنة بين بعضهم البعض، وغادر نفر منهم المجلس فرادى. بعدها بين له رفيقه أنه تعجل في الإيحاء، بأن محمد جاء لنبذ المسيحية كما ان عيسى جاء لنبذ اليهودية، لكن بعض القبط الدارسين أكدوا انهم لم يعنهم ذلك، وقد تفتحت قلوبهم وعقولهم لمحبة الملة الإسلامية، التي جمعت مزايا الأديان السابقة وتخلصت من البدع المنبوذة.

بعد طول تفكير قرر العم زيد ان يستزيد علماً عن المذهب القبطي النصراني، وسأل بعض الرهبان في المطرية ليرشده أحدهم عن كتاب يفصل له ذلك، فأوصاه معظمهم ان يسافر للكنيسة الكبرى في الإسكندرية، ويلتقي مع بعض رهبانها ويطلع على مخطوطاتها.

ذهب إلى هناك مع قبطي أسلم حديثاً، ولم يبد لهم ذلك بل ادعى ان صاحبه الخثلان، يزمع الارتداد عن دينه والتنصر ويود معرفة المزيد عن المسيحية. التقيا قسيس شاب بدا متشككا في الأمر، وتساءل عما يدفع أحد وهابية نجد لترك دينه، وأخبرهما ان أحد قرابته أمضى شهور في الدرعية، مع بعض مدفعجية اليونان في جيش إبراهيم باشا قبل ربع قرن. أثناء الحوار سأل العم عما يعرفه عن الأديان، في نجد وما حولها منذ الأزمنة البعيدة، فقال له ان أسلافه ذكروا له شتات من المعارف. وإنه قبل آلاف السنين من البعثة المحمدية، كان هناك أقوام يعبدون الأوثان مثل وداً وسواع ويغوث ونسرا، فأرسل الله نبيه نوح ودعاهم للتخلي عنها وعبادة الله وحده، وبعد نحو ألف سنة من الإعراض سلط الله عليهم الطوفان، فأبادهم وبقيت ذرية نوح والقلة الأخرى التي آمنت معه. لكن بعد مئات السنين انحرف نسلهم وعادوا لعبادة الأصنام والتماثيل، واشتد ذلك الباطل في جزيرة العرب ومصر والشام والعراق. فبعث الله فيهم رسولا في بابل (هاروت وماروت) هو إبراهيم بن آزر صانع الأوثان، ونصحهم بالتوجه لعبادة الله والتخلي عن الاصنام، فألقوه في أتون النيران ونجاه الله منها. وأخذ يحث الناس في بلاد كنعان (فلسطين الشام) للتوحيد، ثم هاجر لمصر لإبلاغ أهلها بما أوحي اليه به، ثم سافر بطفله إسماعيل للحجاز وتركه هناك لتعليم الناس عبادة خالقهم، وبنى (أعاد) أول بيت رباني. أما ولده إسحاق فبقي في الشام، وحفيده يعقوب (إسرائيل) أكمل دعوة اصلاح البشر، ثم سبطه يوسف تولى ذلك الأمر بعد قدومه لمصر مع إخوته الأحد عشر، الذين كان من بينهم لاوي وبنيامين وشمعون ويهوذا، توالدوا حتى غدوا شعب بني إسرائيل وعددهم آلاف، استوطنوا مصر والشام ثم انحدروا لشمال الحجاز واليمن. وكان من ذرية لاوي النبي موسى عليه السلام، الذي جاء قومه بالصحف فيها كلام الله، وأراهم المعجزات المذهلة، لكنه لما ذهب للقاء ربه أربعين ليلة، عاد ليجدهم يعبدون تمثال العجل الذهبي فحل عليهم غضب الله، وكان ذلك قبل الفي سنة من البعثة المحمدية. وبعدها تفرقوا إلى شيع وأحزاب يبغض بعضهم البعض، وبداء احبارهم يحرفون التوراة ويبتدعون شرائع، تخالف ما أنزل الله على أنبيائهم بعد موسى وهارون.

وقبل ستة قرون من ظهور الإسلام، أرسل الله لهم كلمته مع الوجيه المبارك عيسى عليه السلام، الذي ولدته مريم الراكعة الساجدة القانتة، بكلمة الله التي نفخها الروح الأمين فيها من غير أب. وجاء بني إسرائيل بالمعجزات الباهرة، من احياء الموتى وعلاج المرضى، والكلام في المهد فسخروا من ذلك، وحرضوا سفهاءهم لممارسة لعبة الكلام من البطن. ثم اوعزوا لحاكم فلسطين الوثني، أنه مجرم يستحق القتل وقبض على شبيه له وصلبه، لكن الله حمى رسوله ورفعه عنده، فالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا. ختم العم زيد حديثه بالقول انه ليس عالم متعمق في الأديان، لذا جاء إليه لمزيد من المعرفة، وإزالة اللبس حول سبب إعراض أتباع السيد المسيح عن سنته، وضرب لذلك مثالين مما

أحدثوه بعد رفعه، فهو لم يأكل لحم الخنزير فكيف أجازوا أكله. كما انه كان مختناً فلماذا ألغوا الختان، وغيرها مثل شرب النبيذ المُسكِر وتحريم الطلاق وتعدد الزوجات، كما أجازوا وضع التماثيل في دور العبادة، مخالفين سنة إبراهيم الخليل الذي حطمها، كما انهم نبذوا التوحيد وجعلوه سبحانه ثالث ثلاثة.

كان القسيس يستمع في هدوء ثم قاطعه لما بلغ ذلك، وقال ان عقيدة القبط هي التوحيد، والإيمان انه واحد لا شريك له، لكن البعض لم يفقهوا ذلك وتقولوا غير الصواب، حيث ملتنا تقضي بوحدانية الرب الذي يوجد على ثلاث صفات لا تنفي وحدانيته. ثم تساءل عما إذا كان المسلمون لديهم تسعة وتسعون آلهة، وما الفرق بين اسم الرحمن والرحيم، التي لا تصح صلاتهم إلا بالاستفتاح بها في كل ركعة؟ إن الله واحد له ثلاث صفات أو أسماء، كما أن الماء إذا سخن صار بخار، وإذا برد صار ثلج لكنه ما زال ماء على هيئات ثلاث لكيان واحد. وعقيدة الثالوثية (ترنترون) ليست مثل الملاحدة القائلين ان الله ثالث ثلاثة، بل هو واحد ذو ثلاث صفات، فهو أب كل البشر بما نفخ من روحه في أبيهم آدم. وهم الأبناء إخوة لأنهم من نسل روح الله، لكن ابن واحد (يسوع) فيه نفخة روح مباشرة يختص بها عن بقية أبناء الله البشر. وهناك الروح الربانية المقدسة وهي سر الحياة على الأرض، وتأتي ممن له المجد والعلو في السماء، تتشكل كما يريدها سبحانه يهبها وينزعها عمن يشاء. لم يوافق العم زيد على ذلك لكنه حريص على جذب بعض المصريين للإسلام، فواصل الاستماع للقسيس وهو يقول ان المسيح لم يقل قط انه خاتم الرسل، وبعد رفعه كان هناك رسل مثل مرقص وبولس، بعثهم لمناطق عديدة مثل انطاكية ونيقية وقرطاج. وقد تولوا اكمال الدعوة الدينية وفصل المسيحية عن الديانة الموسوية، التي افسدتها بدع الأحبار والرهبان اليهود، كما ان رسالة يسوع تتضمن ان يحل لأتباعه كثير مما حُرم على السابقين، كما ورد في نص قرآنكم. لما بداء الجدال يحاوره لينقض تلك الأقاويل، بدا الانزعاج على القسيس، وأشار إلى أحد مرافقيه وقال انه الراهب مرزوق، وهو يعرف العربية والقبطية والآرامية واللاتينية السريانية. كما ينظم الشعر بالفصحى بل وسافر للحج متخفياً كخادم مع مغاربة، وهو يعرف الكثير عن الإسلام واليهودية والمسيحية، وأمرهما بالجلوس بعد العصر وبحث الأمر.

بداء العم زيد بن عبدالله المباحثة بالقول ان القسيس رجل فاضل، ويظهر من حديثه أنه مجهز لحث القبط على عدم الالتحاق بالإسلام، وليس فيه شيء لشرح مبادئ النصرانية لمن يرغب اعتناقها. أجابه الراهب ان شعب مصر لما دخلها ابن العاص والصحابة، قبل أكثر من ألف سنة كان جلهم على ملة المسيح، مع قلة من اليهود وغجر الهند القادمين من العراق بلا دين. واليوم أصبح ثلثي أهلها مسلمين والقبط أقلية، لذا فمن المهم النظر في ذلك، ولم نعهد مسلم جاء يريد دخول المسيحية، والعلة في ذلك ليس الايمان والشعائر. بل الجزية حيث تفرض على غير المسلم برأسه، وليست مثل الزكاة التي تفرض على

ماله، وإذا لم يكن لديه تجارة ولا زراعة أو صناعة، فيدفع له من حصة الفقراء والمساكين. استرسل البحث بينهما لساعات، كان العم زيد يحاول التعرف على مداخل التبشير بالإسلام بين النصارى، وفهم الارتباك بين الثلاثة والواحد وكون الرب أب أو ابن أو روح! وبيان وحدة الكتاب السماوي الإسلامي (القرآن) مقارنة مع تعدد الأناجيل، وغيرها من الأمور الملتبسة في فكر المؤمنين. قال له المصري ان الاضطراب في فهمكم يرجع للطبائع، فإن سكان صحراء الحجاز يريدون رؤية واضحة، لا تستلزم عمق التفكير وبُعَد التصور العقلي، أما في الشام حيث الأنهار والبحيرات والأشجار، فلدى أهلها قدرة على فهم الأمور المعقدة. لهذا سموا الأيمان "عقيدة" تحتاج لكثير من التدبر في الأحوال اللاهوتية (ربانية) والناسوتية (بشرية) وادراكها ليس متيسر للجميع، ولهذا جاء محمد بتعاليم مبسطة تلائم الطباع الصحراوية. وقام بمباشرة شرح الالتباسات الثلاثة، وأولها الحالة الممتزجة ليسوع ابن الرب، بين كونه خليط من اللاهوتية والناسوتية، فهو خرج من رحم السيدة العذراء مريم مثل بقية الناس، ولكن بدون نطفة بشرية مثل غيره بل بنفخة الهيه من الروح المقدسة! وثانيها ظنكم ان الحواريين هم الصحابة، والصحيح ان المسيح كان له خلصاء مقربين عددهم اثنا عشر، وأرسل سبعين رسول للبلدات ليدعوا الناس لمذهبه ويبشرهم بالنجاة والفوز، كما ان له عدد غفير من التلاميذ الذين سمعوا مواعظه، ومن اوعى وفهم بلَّغ غيره بذلك حسب وصيته. أما الالتباس الثالث لديكم فيتعلق بالأناجيل المتعددة، حيث كان عيسى وكافة أصحابه وطلاب العلم منه، هم من بني إسرائيل يدرسون التوراة والزبور كما أنزلت على موسى وداوود وغيرهم من الأنبياء، حتى صُلِبَ ثم دفن ثم قام من قبره في اليوم الثالث، وصعد للملكوت الأعلى بعد ان فدى بدمائه ذنوب البشر، حيث له المجد في السماوات العلى والسلام في الأرض المسكونة. أما الحواريون فقد هربوا من حديقة الياسمين، عندما باغتوهم على مائدة العيد بوشاية من شيطان مريد، وتواروا عن الأنظار في بلدات بعيدة، وسارعوا للتبشير بوصايا وعهود وتعاليم السيد المسيح كما أمرهم.

بعدها أردف الرجل بالقول ان مسألة تعدد الكتب السماوية لها تفصيل، فحقيقة الأمر ان لدينا كتابان فقط، هما العهد القديم الذي في صحف موسى وزبور داوود، وغيرهم من الأنبياء والرسل من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، لهم جميعاً القدسية في الملكوت الأعلى. أما العهد الجديد فهو ما كتبه بعض رفاق وتلاميذ الابن المقدس، من مواعظه وبشاراته التي أوحي له بها من الله. وحيث انه رُفع إلى ربه في سن مبكرة (بعد الثلاثين بقليل) فلم تكتب خطبه ومواعظه، إلا بعد صلبه ورفعه للسماء العليا. وكان في البداية ذو مكانة عالية عند أحبار اليهود، للمعجزات التي أتى بها خارقة لكافة النواميس، فقد بلغ سريعاً مرتبة حاخام إسرائيلي، مما أثار حفيظة وحقد بعضهم. وكانت الناصرة وبيت لحم واورشليم، تحت حكم روما التي أصبحت امبراطورية مسيطرة، بعد ان قضت على

الجمهوريات الاغريقية الأخرى، التي تساقطت الواحدة تلو الأخرى، في السنوات التي تلت وفاة الاسكندر الأكبر زعيم اليونان. وقد أذعن يهود الشام للحكم الروماني الوثني، لقاء تركهم يمارسون عقيدتهم السماوية، مع دفع الجزية على أموالهم الطائلة، المكتسبة من تمويل التجارة في سلع الصين والهند والحبشة وتصديرها لأوروبا. لكن استمرار معارضته لأفعال بعض الأحبار، من غش وفجور وأكل الأموال بالباطل، جعل كثير منهم يستاؤون منه، وبخاصة لما تجمعوا لرجم امرأة فاسقة، أمرهم بأن يرجم أول حصاة من كان بلا خطيئة، فاتهموه أنه يعطل أحكام الشريعة الإسرائيلية ويجيز الفواحش. وبعد صلبه ثم رفعه للسماء من قبره في اليوم الثالث، تفرق صحبه في أصقاع الأرض. وكتب كل منهم ما حوته ذاكرته من أقوال ابن الرب، فعارضه العم زيد بأن ذلك لا يتفق مع فكرهم، فما داموا (القساوسة) يستاؤون من ان يقال ان لهم أبناء أو زوجات، فكيف يدعون ذلك لمالك الملكوت؟ نظر اليه مرزوق بحدة ولم يتفوه بكلمة، وتذكر العم زيد انه جاءهم بدعوى التعرف على دينهم، وليس ليجادلهم في بعض أقاويلهم.

ثم استأنف حديثه بالقول ان بعض أولئك الحواريون، كتب شيء مما بقي في ذاكرته من كلام السيد المسيح، وهناك الآن أربعة أناجيل معتمدة لدينا، لكن أساس تعاليم الكنيسة القبطية هو انجيل مرقس الموجز (مرقص أو ماركوس) والثلاثة الأخرى هي متا ولوقا ويوحنا. ومرقس لم يكن أحد الحواريين الاثني عشر (أو أكثر) لكن خاله (وربما عمه) كان منهم. وقد ذهبت عائلة مرقص من فلسطين غرباً، للعيش في جربة (قرطاج – قيروان – تونس) فراراً من فساد طغمة الأحبار وبطش الروم. وقبل رفع عيسى أمر قريبه ان يستدعي مرقس من الغرب، ويذهبا لطبرية مع الصيادين، لكن بعد رفع المسيح وتزايد الاضطهاد في فلسطين، سافرا شمال عكا في قرية صيدن (صيدون أو صيدا) ثم عبروا البحر لقبرص، لكن الفسقة فيها قتلوا برنابا لذا فر مرقص منهم إلى الإسكندرية. حيث كانت إحدى المدن التي بناها الاسكندر الاغريقي، وفيها مدارس ومعامل مزدهرة وقلة من اليهود، وأكثر سكانها وثنيون على ملة البطالمة (كليوبترا) الذين ازاحتهم القوة الرومانية الجديدة. وفي الإسكندرية تبين له ان من الأجدى التبشير بالديانة الجديدة بينهم، حيث كان اليهود يرفض غالبيتهم اتباع المسيح، كما لا يقبلون دخول غير الإسرائيليين (الأغيار) في التعاليم الموسوية، حتى لا يزاحموهم في المحشر أو في الجنة! ولما زاد عدد المتنصرين في البلدة، غضب منهم الوثنيون وقتلوا الرسول مرقص في الطريق ومزقوا جثته، مما أدى لتكاثر متبعي الملة الإسرائيلية الجديدة، التي خففت من الأعباء مثل الغاء الختان والرجم، أو أكل أجزاء من لحوم وشحوم الحيوانات، وتعطيل طلب الرزق يوم السبت.

لكن الكهنة الوثنيين في روما حاربوا الدين النصراني (من الناصرة أو أنصار عيسى) وأخذوا يعذبون المؤمنين به، ويقيمون احتفالات بشعة ليلقوا بهم في مصارعة مع الأسود

الضواري الجائعة. لكن ذلك أدى إلى زيادة انتشار النصرانية كالنار في الهشيم، وبخاصة بين الخدم والمستضعفين خلال القرنين التاليين. حتى قيض الله ان يصبح قسطنطين امبراطور للرومان، وكانت أمه وزوجته تُجبران لحضور مراسم قتل النصارى، ولما تقززتا من ذلك قررتا معرفة المزيد عن المسيح، ثم آمنتا به وعزمتا الدخول في الدين، ونبذوا عبادة الأصنام سراً، ثم أقنعاه للدخول معهن في الملة الجديدة. وحيث كان يخشى انكشاف ايمانه، فينقلب عليه مجلس الأمة الوثنية ويعزله، لذا تظاهر بالتوعك وأخذ يجوب بلاد البصنة والصرب والكروات واليونان، يبحث عن منتجع يأوي اليه للعبادة. حتى عثر على قرية قرب البحر الأسود (بيزنطة) فشيد له فيها قصر، وسمى المدينة على اسمه قسطنطينية. تأسيا بوالده الذي بنى مدينة قسنطينة غرب القيروان، في جبال الجزائر حالياً تبعد عن البحر قليلا. ومن هناك أقنع بعض أعوانه بالنصرانية، ودخلوا فيها معه، ثم بداء يلغي قوانين قتل المؤمنين، الذين كانوا بحاجتهم لصد هجمات الهمج الشماليين عند نهر الراين، بخاصة نورمان اسكندنافيا ذوي القوة والشراسة والهوهن والفندل. وأردف الراهب مرزوق يبين للعم زيد، كيف كان لقسطنطين أعظم مساهمة في نشر النصرانية خلال عشرين سنة، بما يتجاوز ما قام به حواريو المسيح وتلاميذه ثم أتباعهم خلال قرنين، فجعلهم يعادلون آنذاك ثلاثة أخماس أهل الأرض المسكونة. وبعد وفاة ذلك الإمبراطور الصالح، تكالبت على روما المحن حيث دبت خلافات عميقة، بين القادة خلال القرن اللاحق، جعلت النصرانية تزداد انتشاراً. لكن الطامة الكبرى جاءت من عبور الهمج الدانوب وجبال الألب، وتوجههم نحو عاصمة الإمبراطورية (روما) مما دفع أهل السياسة للبحث عن ملاذ آمن تنقل اليه السجلات والأختام. وتقرر اختيار القسطنطينية (إسطنبول حالياً) لتكون العاصمة البديلة، وبينما عاث الشماليون الهمج الفساد في روما، غدت مدينة مزدهرة تنتشر منها الدعوة الجديدة، لتغطي أرجاء واسعة من بلاد الروس والأناضول والبلقان وغرب أوروبا، إضافة لشمال وشرق أفريقيا والحجاز واليمن والعراق والشام، ولم يبقى من يناوئها سوى بلاد الفرس. وقد كان ذلك الاتساع سبب تعدد الأناجيل والابتعاد عن التعاليم اليهودية، حيث استمر أحبارها في محاربة النصرانية، لأنها تحريف لتعاليم موسى ومن تبعه من أنبياء وملوك، ولأنها دين خاص ببني إسرائيل فقط.

قال العم زيد لرفيقه أنه يود الالتقاء مع مرزوق في الغد، حيث ان ثرثرته قد بينت للعم كيف يردون على تساؤلات المشككين في النصرانية، مما سيكون عون له في بيان ضعف بنية الديانة المسيحية وتناقضاتها. جرت محاورة بينهما أصر القبطي على أن يبين في أولها قصة تلك الكنيسة الكبرى في الإسكندرية، فقال ان المؤمنين بالله من النصارى، قد جمعوا أشلاء مرقص ودفنوها في غرفة صغيرة، ثم جعلوها مصلى خفي يتبركون به. ولما دخلت روما في ملة النصارى، توسع ذلك المكان وبنيت فيه كنيسة، ولما جاء ابن

العاص مصر، كانت عاصمتها الإسكندرية وأجاب الوالي رغبة القبط، لتوسعة الكنيسة وترميم ما تهدم منها. إلا انه أثناء بدء ضعف العباسيين (المعتصم -المتوكل) تسلل بعض الايطاليون وسرقوا جزء من رفات القديس مرقص، وبنوا بازيليكا في البندقية سموها المرقصية (سانت ماركوس) وصاروا يحجون اليها. ثم أضاف بالقول ان سيطرة السلاجقة على بغداد من البويهيين، وتحرشهم بوسط الأناضول أثار حفيظة حكام بيزنطة، وتأجج نزاعها مع روما التي استعادت بعض قوتها، لما تكاثر دخول الهمج تحت سيطرتها ودينها وتولى القيادة شارلمان. كما ان دخول جوهر قائد الفاطميين ميناء الإسكندرية، قاعدة إدارة مصر آنذاك اضعفت هذه الكنيسة المرقصية، بخاصة لما بنى قلعة القاهرة للمعز شمال الفسطاط، ثم أقيم جامع فاطمة الزهراء (الأزهر الشريف) ورد عليهم العراقيون ببناء النجف الأشرف، مناكفة للعبيديين الباطنية. كل ذلك أدى للتوتر بين كنائس الإسكندرية والقسطنطينية الشرقية، وكنائس الغرب الرومية، وتطور ذلك إلى خلافات عميقة حول أسس العقيدة المسيحية. فقد أصر أساقفة روما على أن المسيح إلاه كامل وإنسان كامل، على خلاف معنا في المشرق، بأنه نصف إلاه (لاهوتي) ونصف إنسان (ناسوتي) لأن الحمل به ليس من رجل بل من نفخة إلاهية، والنصف الثاني من رحم أمه مريم العذراء. وخلافات أخرى مثل عجز قبائل الهمج عن فهم الفرق بين الطهارة والنجاسة، فهم يعرفون فقط النظافة والقذارة الحسية، وبذلك يرفضون القيود على أكل اللحم النجس. ثم تفاقمت الخلافات في ظل وهن القسطنطينية أمام السلاجقة، وتزايد قوة روما بدخول مزيد من شعوب الشمال في ولايتها، مع ضعف حكام الأندلس وتساقط مدنهم في يد حلفاء الروم. وما كاد ينتصف القرن الحادي عشر لمولد المسيح، إلا وحدث الانفصال الكلي بين كنيسة بيزنطة الأرثوذكسية، وكنيسة القديس بطرس في روما الكاثوليكية، التي فرض زعمائها نفوذهم على حكام المقاطعات في وسط وشمال وغرب أوروبا. وانكشف أمر روما بعد ثلاثين سنة، لما بداء قادتها يحرضون على شن حروب صليبية، ليحرروا بيت المقدس (اورشليم) مدينة السلام من يد السراسين! (الكفار) المحمديين. حيث نهبوا وقتلوا الملايين طمعاً في المكاسب المالية، وفي احدى حملاتهم تبين خبث طوية أولئك الضالين، فقد هجموا على عاصمة الأرثوذكس (القسطنطينية) ودمروها وقتلوا وسرقوا ما فيها. وبعد ثلاثة قرون من السجال مع السلاجقة والأكراد والعرب، تبين عدم جدوى تلك الحروب الصليبية، بخاصة ان الغزو المغولي لوسط آسيا، دفع كثير من المسلمين غرباً نحوا العراق والشام ومصر، فأدى ذلك لضعف الغزوات الصليبية. لكن عودة آلاف من الجنود والرهبان والقساوسة إلى وسط أوروبا، بخاصة سلالة اللمبارد سواء من الجرمن الهمج (بربروسا) وبعض الفرنكش (فرنجة) أو الإيطاليين أدت لاختلاط فكرهم، بما شاهدوه في الأرض المقدسة، من الإيمان الأرثوذكسي وممارسات المسلمين، فثاروا على كهنة روما واعترضوا على افعالهم، وتأسست عدة مذاهب من الرافضين البروتستانت. الذين أيدتهم جحافل العثمانية الغازية

لوسط أوروبا، التي دخلت القسطنطينية وحولت كنائسها لمساجد، وانحسر نفوذ الأرثوذكس في كنائس اليونان والروس والقبط. أعظم اعتراض للبروتستانت على كاثوليك روما، هو الهيمنة الشرسة على حكام أقاليم أوروبا، الذين لا يحصل أي منهم على البركة، إلا إذا عمده أب (بوب) كنيسة بطرس. فحصل باباوات روما على مال وفير لقاء ذلك، أما بقية رجال الأبرشية فيتمتعون بملذات كثيرة، على حساب الفلاحين والصُناع والتجار، الذين لا يحق لهم معرفة تعاليم الإنجيل المحرمة ترجمته من الآرامية واللاتينية. ويجيزون لأنفسهم فرض الإتاوات على البسطاء، وممارسة الفواحش مع الراهبات وغلمان المذبح المقدس، لذا قروا السماح للرهبان بالزواج، وترجمة الانجيل وإلغاء صكوك الغفران، ومنع الأسرار الكنسية (علم لدُني) أو تدخلها في صلوات المؤمنين، ودعمها لمالكي الأراضي المستعبِدين للبسطاء.

بين له مرزوق القبطي ان ذلك الشرح المسهب، قصد منه الجواب على استفساراته للقسيس يوم أمس، فإن تعدد الرسل بعد رفع المسيح، ودخول أجناس مختلفة من البشر في النصرانية، أدت للانفصال الكلي بين النصرانية والعقيدة الإسرائيلية، رغم انهما كانا مذهب واحد لعشرات السنين بعد ان صلب بلاطوس المسيح. فنشأت مذاهب كثيرة متناقضة في تعاليمها، وهو ما يشبه ما لدى المحمديين من خلافات مذهبية، فبعض الأحكام في "موطاء" المالكية، تختلف عما في "أم" الشافعية. وبذلك لم تعد الفرق المسيحية تتفق في كل المسائل، مثل الختان أو النبيذ والطلاق، وفي أكل أجزاء من اللحوم النجسة أو زواج الرهبان، ناهيك ببعض نصوص الإنجيل. حيث إنها ليست كما لديكم أنها كلام الله، بل هي مدونات لأقوال يسوع كتبها الحواريون، وهي مثل مدونات الحديث النبوي لديكم، فالبعض يقبل صحة ما نقله البخاري، ويرفض ما في مسند الحنبلي! أو الدارقطني ولا ترون فيه غضاضة. وأكمل حديثه بالقول ان كتب أحاديث محمد الأساسية لم تصدر إلا بعد وفاته بمائتي سنة، بينما الحواريون كتبوا الأناجيل الأربعة بعد صلبه ثم رفعه. أما مسألة الختان فلا أعلم ان في الشريعة الحمدية نص يبين لزومها، واعرف ان بعض صحابته المقربين، كانوا من الروم والفُرس والحبشة، ولم يأمرهم بالختان بعد إسلامهم. والخنزير معظمنا لا يأكله، لأنه نجس ولكن ما يؤكل هو "الحلوف" الطاهر! فشلت محاولات العم زيد للحصول من الرجل، على الانتقادات التي يعرضونها على أي قبطي يرغب دخول الإسلام، لكي يصرفوه عن ذلك ويبقى على ملته المسيحية. وقصده من ذلك تفادي التصادم مع رجال الباشا الكبير، الذي ينبذ تحول أي مسلم للنصرانية، بينما يشجع ممارسات جذب القبط للملة الحنيفية. وعند عودة العم زيد للمطرية، باشر المشاركة في شرح مبادئ الإسلام لبعض النصارى، لكن قلة منهم قبلوا الدخول فيه، حيث كانت الكنائس تحشد المبررات لحثهم على البقاء في معتقدهم، بخاصة نصارى اليونان والبلقان والأرمن غير القبط. جاءه الفرج من الله، لما التقى باثنان من أقباط الصعيد حديثو عهد

بالإسلام، ووافقوا على الذهاب معه لأنبا كنيسة الأزبكية، متنكرين على أنهم نصارى من قنا وسوهاج. جرى ترتيب ان يدعي العم زيد ان أخاه يريد الدخول في الإسلام، ويتولى السوهاجي الكلام مع الرهبان، حتى يحثوا أخ صهره ليبقى على دين أسلافه، ويعرفوا ما يقوله رجال الصومعة عن الإسلام. حتى لا ينكشف أمرهم تظاهر العم بتلعثمه في الكلام، وعلق في رقبته صليب قبطي، وترك الرفاق يحادثون القسيس حتى لا ينكشف أمره. الذي بدوره انطلق في هجوم على الإسلام، لا يجرؤ عليه في حضرة المسلمين، فتهجم على ملاحظة القناوي عن وجود اختلاف في أقوال الإنجيل، فيما يتعلق بأحوال يسوع وأمه ماريه العذراء، والتباين الشديد لدرجة التناقض بين بعض طوائف الأرثوذكس، ناهيك ما بينهم ومذاهب الفرنسيسكان واللوثريين والدومينيكان من تناقض. وبداء بالتهجم على سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، ووصفه انه قائد عسكري يحكم بالسيف، وصل لدرجة الملوك وليست لديه صفات الأنبياء من الرحمة والإحسان! ولما دخل بجحافله المسلحة حرم مكة، نقض عهده بالأمان وقتل البعض عند المداخل، بل وأرسل من يقتل نساء لم يكن خاضعات له قبل ان يهاجر ليثرب، وعفى فقط عن قرابته وسماهم الطلقاء! وفي أواخر سنينه كان أتباعه يزيدون على مائة ألف، وبداء هجمات حربية ليس فقط على بلاد العرب، في اليمن ونجد والبحرين، بل وصل لحدود الشام والعراق، يقتل كل من لا يدفع له الجزية! وكان كثير من رفاقه يعارضون وحشيته، وحبه لكسب وخزن المال والأنعام والنساء، فقد كانت له أكثر من عشر زوجات، وعدد كبير من الجواري، ويغدق على بعضهم العطاء ويحرم غير المقربين، ومات مسموماً على فراشه. وقبل دفنه كان صحبه يتنازعون القيادة، ومات خليفته وصهره بالسم أيضا، والذي تلاه صهره أيضاً طعنوه وهو يصلي في المسجد. والثالث هو زوج اثنتان من بناته، دخلوا عليه في داره وقطعوا رأسه، ومن بعده زوج ابنته هشموا جمجمته وهو ذاهب للصلاة. ثم تكالب بعض أصحابه مع زوجاته يقاتلون الرفاق، وظهرت في الفتن عدة طوائف تخرج على غيرها أو تتشيع لآخرين، وتولى القيادة الحربية قرابة زوجاته، فقرروا إشغال الأتباع بالغزوات الخارجية، واستولوا على كثير من البلدان بطرقهم الوحشية في قتال من لا يخضع لنفوذهم. لقد تكاثر أتباع الملة المحمدية خوفاً على حياتهم وأملاكهم، فمن لا يخضع سيهدر دمه وتسبى نسائه وتستعبد ذريته في أسواق النخاسة، فهل تريد ان تدخل في ذلك، ويكون السيف على رقبتك بمحض اختيارك. وما الذي يدفعك لترك الدين الحق، الذي جاء به ابن الرب لينشر السلام والمحبة في الأرض، ويؤكد المجد والعلو له في السماوات العلى.

كاد العم زيد ان ينفجر غضباً لسماعه تلك الأكاذيب من ذلك القسيس الأفاق، لكنه تمالك نفسه ليحصل على المزيد من المعرفة، بأساليب التضليل التي تتبعها الكنائس بغرض صرف الناس عن الدخول في خاتم الأديان، وادعاء التبشير بالخلاص لمن يتبع ملتهم المنحرفة عن الصراط المستقيم. أما القناوي المتظاهر بأنه لم يدخل في الإسلام بعد، فقد

رد عليه بأن القرآن كتاب واحد متفق عليه، وكافة الناس يلتزمون بما فيه منذ أكثر من ألف سنة. تبسم القسيس في استهزاء مدعياً ان ذلك خداع، والحق ان هناك خلافات كثيرة حوله، وهناك تعطيل وتحوير لنصوصه وأحكامه، وبداء بادعاء ان بنات محمد لديهم مخطوطات، تزيد عن ضعف المصحف الذي كتبه أصحابه، الذين رفضوا ذلك بل وألغوا حصتهم في ميراث أبيهم، المنصوص على انها النصف. ثم أردف بالقول ان محمد نفسه خالف القرآن، فلما اتهم رفاقه احدى زوجاته بالفاحشة، جلد ثلاثة منهم وترك (سلول) الرابع، لأنه "رئيس الخزارقة" الأقوياء، ولما عادوا بعدها لاتهام زوجته القبطية، لم يجلد أحد منهم معطلا حكم كتابه! كما بدل حكم تحريم الخمر، لما كان عمه المفضل قد سَكِر وعربد، حتى أنه خرج لناقة عند الباب، واستخدم خنجره لأخذ رطل من شحم سنامها وهي تصيح، وأمر بوضع نص جديد ان ليس عليهم اثم فيما أكلوا وشربوا، ما دام أنهم يتقون مخالفته وغضبه؟ وزيادة على ذلك حكى لصحبه أنه سافر في ليلة واحدة، من مكة إلى الشام وصعد للسماء وعاد قبل الصبح، وهذا ما لا يستطيع أحد ان يسافره من المطرية لبنها. ولما رفض الجميع تصديقه غير روايته، فقال ان تلك كانت من رؤية في المنام. أما خلفائه (بكر وعمر وعثمان) الذين كتبوا الصحف المحمدية، أسقطوا الكثير من النصوص لأنهم "ماكانوش حافظين" مثل رجم الشيخ والشيخة الزناة، والتي أخذها محمد من جيرانه اليهود في المدينة. كما انهم حذفوا الجزء الذي يمدح فيه محمد الأوثان، ويصفها "بالغرانيق العلى" المستحقة للتمجيد. ورغم ان النص في القرآن ان محمد ليس أب لأحد، إلا ان أولاد بناته سارعوا بعد بلوغهم (30 سنة) انهم من ذريته، وكونهم سلالة مقدسة جعلوا أنفسهم قادة وملوك حتى يومنا هذا. ولقد شاهدنا في شبرا قبل أعوام الأمير غالب، حاكم مكة الذي جاء به الباشا بعد خيانته للخليفة، وهو يدعي لنفسه مكانة مقدسة. لأنه من نسل محمد رغم الفساد العظيم الذي عمله في الحجاز، ووقوفه مع خوارج نجد لسلب وقتل الحجاج، فماذا تؤمل من دخول دين يقوده ناس يدعون أنهم آلهة، ويشتمونا لأننا نقول ان يسوع ابن الرب من نفخته. وفي هذا الأمر تجد البلبلة والاضطراب الشديدين في القرآن، فتارة يقول كتابهم ان الله نفسه نفخ نحو العذراء لتحبل بالمسيح، وفي جزء آخر يقول ان النفخ جرى في موضع الفرج ذاته؟ ثم يقول في جزء آخر ان رسول جاءها في هيئة رجل (يوسف النجار!) ليهب لها غلام في مكان منعزل. ولم يبين ما إذا كانت الهبة بالجماع، كما يدعي الكفرة اليهود على سيدتنا العذراء، أو انها بنفخ أو غيره مما يثير شكوكنا جميعاً حول صحة ما ورد في قرآنهم.

لما تمادى القسيس في كذبه وافترائه، رد عليه القناوي ان كلامه لا يستند للحقائق، وان هناك كثير من الادعاءات الباطلة، يدلسها مبغضوا الإسلام من الوثنيين واليهود، ورأى العم ان الرجل قد غضب، والوقت مبكر للرد على ذلك الزور والبهتان. لذا فحرصاً على معرفة المزيد عن دعاوى المبطلين، استأذن منه للمغادرة وشرح بعض الأمور للصهر

لثنيه عن دخول الإسلام، أو العودة ثانية للاستماع لما لدى القسيس الضال. بعد خروجهم استحس الجد بأن أحد ما يتعقبهم، فطلب من الرفاق حث السير، وطيب خواطرهم بقوله سبحانه "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره" وقوله تعالى "كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا" ثم تذاكروا حول دور اليهود والنصارى في بث الافتراءات على الإسلام. كما أضاف لهم العم ان بعض من يدعون الإسلام، من روافض وبهائية يعاونون في الترويج لذلك الزور، ولا ننسى ان بعض الصالحين زلت أقلامهم، وحاولوا تزيين مخطوطاتهم بذكر بعض المشتبهات، مثل الشجرة الملعونة أو الغرانيق والإفك على مارية رضي الله عنها. أما جلد ابن سلول فلم يتم لأنه في مرض الموت، وحمزة رضي الله عنه شرب الخمر عند أُحد، واستشهد قبل نزول "فهل أنتم منتهون" والتحريم. تسلح العم بمعرفة كيف يشككون القبط الراغبين في دخول الإسلام، وصار يبادر بشرح الردود على تلك الافتراءات، قبل ان يسمعوها من قومهم، ويحصنهم لأخذ الحذر قبل الوقوع في الضلال، فتزايد عدد الداخلين في الملة الحنيفية الإبراهيمية، كما جاء بها خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام. ذات يوم جاءه مرسول يدعوه لوليمة حافلة، سيقيمها أحد الوجهاء ويحضرها الأمير عباس بن طوسون، حفيد الباشا الكبير صاحب القصر المشيد قرب المطرية. اعتذر من الرجل لانشغاله، وهو في الواقع لا يحب تجمعات المصريين الذين لا يعرفهم مسبقاً. لكن الالحاح وبيان ان صاحب الدعوة يعرفه، لما سبق ان أمهم في صلاة المغرب بحضور الأمير، اثناء بناء قصره قبل شهور فوافق. هناك التقى برجل سبيعي وصل مؤخراً من رماح، وعلم منه ان أمور الإمام فيصل قد انتظمت، بعد شهور من تخلصه من الثنيان، ودخل في طاعته أعيان شمال وجنوب العارض وخمدت الفتن في القصيم والأفلاج. ثم باشر في توجيه رجاله شرقاً نحو الهفوف، وبدأت أكثر العشائر تدين له بالولاء، سواء من المرية والهواجر ومعظم العجمان، ثم امتد نفوذه نحو الشارقة وشمال مسقط. لما تمت الصلاة دعا الأمير عباس العم زيد، ليصاحبه في سفره للحجاز حيث يفضل المذهب الحنبلي، ولا يخفي ميوله نحو حركة الإصلاح التي تبناها آل سعود في الدرعية، رغم بغض جده الشديد لها. ارتج العم لتلك الدعوة حيث تشكك ان سفر أكبر حفدة الباشا لجدة، قد يكون القصد منها محاربة الإمام فيصل، ومنعه من استعادة النفوذ السعودي هناك، لكنه لم يقدر على الإفصاح عن رفضه المشاركة في عمليات عدوانية على فيصل بن تركي، لعلمه بغرابة أطوار عباس الذي لا يقبل أي مخالفة لرغباته الطائشة. كما أنه متقلب المزاج، ويتعدى أحياناً على أعوانه بينما يسبغ عليهم العطايا بعد لحظة أخرى، كما تحيط به ثلة صحاب يتراوحون بين التدين والمجون، وله شطحات فكرية غير منتظمة احداها بنائه القصر في تلك الأرض القاحلة. لذا ابدى العم إشارة مقتضبة أن لديه أشغال في الفيوم، وقد يلحق بالأمير في الحجاز بعد فترة قصيرة، فكرر عباس بصوت مرتفع أقواله السابقة أنه ولد هناك، لما تزوج والده

امرأة من أشراف مكة! أثناء الغزو العثماني لها لطرد السعوديين منها. تسلل العم بعيداً لتجنب الاسهاب في بحث سفره مع بقية بطانة الأمير، لكنه فوجئ بيد تجذبه وتسلم عليه، واندهش لما وجد نفسه أمام قسيس كنيسة الأزبكية. سارع الرجل بالدعاء لله ان يجمعهما سوياً في الجنة، ثم قال لا تستبعد ذلك يا شيخ زيد، فإن الله يقول في كتابكم "الذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" وأنا وأنت نؤمن بالله الواحد ذو الصفات الحسنى المتعددة. ولما رأى العم يُعِد للرد عليه، قال اصبر يا شيخنا ودع قول الخوارج، ان آية السيف قد نسخت ثلث القرآن! وحيث يعج المكان بخليط من البشر من عرب وعجم ومسلمين وغيرهم، فقد جالت أفكاره في نواحي متفرقة، حيث لم يكن يتوقع ذاك اللقاء، بينما جاءه الرجل وقد أعد العدة. بادر القسيس بالقول انه شك في نواياهم لما جاءوه في الأبرشية، حيث لاحظ عدم تذمرهم من غلظة أقواله، بل كأنهم يودون الاستزادة، كما ان الفاظه وسماته لم تكن قناوية، لذا أرسل من يتعقبهم وعرف خبايا أمرهم.

في اليوم التالي جاءه رجل من سكان الريدانية، ونصحه ان يقبل دعوة عباس للسفر معه للحجاز، فهي فرصة مواتية للعمرة والحج، وكسب عطايا جزيلة من الأمير. ثم أكد له ان خليفة الاستانة عبدالمجيد، ليس محب لسفك الدماء مثل أبيه محمود، فهو حريص على تطوير بلاده لتضاهي قوة جيرانه. وليس لديه طموح لحكم وسط جزيرة العرب، وما دام ان فيصل سيرعى طرق التجارة والحج، فلن تكون هناك مصادمة بينهما. كان العم غير واثق من حسن نوايا الرجل، فلم يشاء الاسترسال معه في الحديث، بل أكد رغبته انهاء أشغال له بعيداً عن المطرية، ثم قد يلتحق بالأمير في الحجاز. لما بلغه ان عباس استقل ركاب حاشد، خارجا من شبرا إلى القلزم ليركب البحر نحو جدة، توجه مسرعاً للإسكندرية لغرض له هناك، وترك عماله يرعون الانعام والخيل والإبل، ومخزن البضاعة الهندية والصينية، التي وصلته من العارض قادمة من مسقط والقطيف. تابع شؤونه هناك وشاهد شخصيات وحوادث، لا يوجد لها مثيل في الفسطاط، حيث هي مدينة منفتحة على كافة أرجاء العالم، والإسلام فيها قليل وغالبية سكانها أخلاط من فرنجة وإغريق وأشوام ومغاربة. يوجد بها جامع كبير لا يضاهي الأزهر، لكن فيه شيوخ على المذهبين الشافعي والحنفي، وحشد من مريدي الصوفية ذوي الأعمال الغريبة عن أهل السنة. لكن سكن العم قرب محلة العطَّارة، يضطره للصلاة فيه أحيانا رغم ذلك، وكان الكثير يتبركون بمقامه الشاذلي، ويرددون في بعض الأوقات أبيات من القصيدة البوصيرية، في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام. كما يقوم بعضهم برقصات وعرضات بدعية، تستفز المتمسكين بالسنة المطهرة، وفي بعض الليالي تقيم جماعات منهم حلقات ذكر، احتفاء بشيخ طريقتهم أو إمامهم، ويحدث في بعضها حركات مستغربة، أو أعمال نشاز ليس لها أصل في فقه العبادات. وكل جماعة تسمي نفسها على أحد

مشايخهم، ويوزع مريديه الطعام والصدقات، في أيام معينة لديهم يقولون إنها ذكرى مولده أو وفاته أو ظهور كراماته! منهم الطريقة الجابرية وأخرى مرسية وجيلانية وعباسية، وطوائف أخرى شتى لا يقدر أحد ان يصفها بالكفرية، لكنها لا تتوافق مع السنة المطهرة وفيها ابتداعات واضحة، يدعون انها لابتغاء مرضات الله وللتوسل إليه. وبعض مشايخهم ينسبون الطريقة لأحد ذرية السيدة فاطمة الزهراء بخاصة الحسن بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، والذين لا يعرف عن أحدهم انه يرضى بالبدع. ذات مرة اقترب من العم أحد المشاركين في حلقة، وسأله عما إذا كان حنبلي كما عرفه من لباسه، وبعد حديث طويل بينهما تأكد العم ان الرجل عارف بالمذهب الحنبلي، الذي ينبذ الممارسات البدعية، لكن الرجل أصر ان ليس فيما يعملونه ما يخالف السنة، بل هي من حلقات الذكر الواردة في الأثر، وأثنى القرآن على "الذاكرين والذاكرات" ثم أردف بالقول ان الوهابية ليسوا هم أساس مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بل لديهم بعض مخالفات له، ولم يشاء العم الدخول في جدال معه، وقد كان عارفًا بالقرآن والحديث والتاريخ فتركه وشأنه. في أحد الأيام دعاه أحد الرفاق الحنابلة للزيارة، ووجده يقطن غير بعيد عن القلعة البحرية العتيقة، في منطقة تزدحم فيها المنازل والطرقات، علم أنه قرب الأنفوشي. وبدا له من الروائح المقيتة ان سكانها أكثرهم سماكة، وشاهد غربها الميناء المزدحم بالسفن، وهو على خليج تفصله عن البحر العالي مساحة من البر، تحمي من الأمواج العاتية، التي لم يرى مثلها في بحر فارس أو بحر جدة. بعد ذلك بأيام توجهوا سوياً نحو مبنى ضخم شمال الميناء وجنوب البحر، في منطقة بها حدائق فواكه أكثرها من العنب والتين، ذو الجودة العالية رغم ملوحة البحر، حيث بدا ان هناك مياه حلوة تنبع من باطن الأرض. علم ان القصر يخص أحد أبناء الباشا الكبير، ودعاهم أحد معارف رفيقه للدخول، حيث وجدوا حشد من الناس في القصر الفاره، وعلم ان تلك الأسرة الألبانية تتودد لأهل الإسكندرية. كما انها ترى في الصوفية موالاة لهم، إلا انها تعتبر ان الأمر الذي لا يعترض عليه رواق الحنابلة، يكون مقبولا لدى كافة المذاهب، حيث هم الأكثر تحوطاً وتشددا. كان العم يجلس بعيداً عن مقعد الأمير، لكنه يسمع حوار يدور حول اقتراح من بعض الفرنجة واليونان، لشق قناة تربط بين خليج فيضان الصيرة قرب بابليون الفسطاط، وبحر القلزم عند الأدبية. حتى تتمكن السفن من دخول النيل من شرق الإسكندرية (رشيد) وتتجه فيه جنوباً، حتى تتجاوز الجبل المقطم، ثم تنحرف شرقاً في ترعة الفيضان حتى تصل لشمال القلزم. فهمس العم لرفيقه ان ذلك قد عرض على الخليفة عمر بن الخطاب، لكنه رفضه حتى لا تدخل سفن الروم، في القلزم (البحر الأحمر) وتستولي على الحجاز. قام الرجل من فوره بالتوجه بالخطاب للأمير، قائلا ان معه رجل حنبلي من نجد، لكنه ليس وهابي وقد عمل أبوه وجده، مع إخوته طوسون وإبراهيم في جزيرة العرب. أمروه بالاقتراب وعرض رأيه على الأمير، الذي لاحظ عندها غلظة وفظاظة وتجهم على ملامحه، فخاطبه وهو في وجل عما ورد في الأثر بشأن تلك القناة، وخطرها على مكة والمدينة، وضرب مثال

على ذلك لما احتل الصليبيون الكرك، وقطعوا طريق الحج من اسلامبول والشام، لكن درب غزة وأيلة (العقبة) ثم القلزم بقي مفتوح. عندها تكلم أحد أعوان الأمير، الذي بدا أنه معارض أيضاً للخطة، ونصح بوجوب صدور موافقة من الباب العالي قبل مباشرة العمل فيه، فأخذ الأمير يهز رأسه ويعبث في لحيته دليل عدم رضاه. في اليوم التالي ذهب العم مع رفيقه إلى مرسى الميناء، لمعاينة السفن وقدرتها على الإبحار في النيل، وتجاوز عوائق الزراعات والمصارف. لاحظ من بعيد سفن متوسطة الحجم يتصاعد منها الدخان، وعلم أنها ما يسمى سفن البخار، التي رغم وجود أشرعة قماشية على سواريها، إلا ان بحارتها يشعلون الفحم الحجري في مراجل بباطنها، وعندما يسخن الماء وتتصاعد منه الأبخرة، يجري استخدام ضغطه لتحريك رفاسات في القاع، تحرك السفينة للأمام عند توقف هبوب الرياح، وتذكر ما قيل له ان في دجلة قديما سفن صغيرة تحرق الحطب، وتسخن الماء فيندفع خارجا للخلف فتتقدم السفينة للأمام. كما أخبره الرفيق ان هناك سفن حديثة صغيرة، مصنوعة من المعدن بهيكل مقوس يسمح لها بالطفو على سطح الماء، وهي تتلافي اشتعال الحرائق من لهيب الفحم، كما في السفن الخشبية العتيقة. كما توجهوا نحو بوغاز رشيد، حيث تدخل الزوارق والسفن الصغيرة، متجهة جنوباً نحو أعلى النهر، معتمدة على نسيم البحر الذي يدفع المركب عكس تيار الماء. أمضى العم فترة هناك، ثم عاد بعد شهور لمتابعة أعماله في المطرية، وجهاده في دعوة النصارى لدخول الإسلام، وكانت قلة من اليهود تقبل ترك دينها، حيث هم شعب الله المختار من سلالة يعقوب حفيد إبراهيم عليهم السلام.

ومرت السنون كان العم زيد أثناءها يمارس أعماله، في رعاية مصالحه الشخصية والمالية، ويدعو بعض القوم لهدى الله، ويعلم آخرين شيء مما علمه ربه، ويكتسب المهارات في الأسلحة الحديثة، وفنون من أعمال الزراعة الحديثة، التي جلبها الفرنجة لمصر. يتتبع أحوال نجد في أثناء ولاية الإمام فيصل، ولا يبدي كثير اهتمام بولاة مصر الخاضعة لسلطان الاستانة العثماني. أثناء ذلك كان البعض يتهامسون حول صحة الباشا الكبير (محمد علي الألباني) العقلية والجسمية، وعلاقة أبناءه مع بعضهم في ظل غياب عباس بن طوسون. وقد كان أكبرهم (إبراهيم مدمر الدرعية) يعاني من علل باطنية عضال، ذهب لبلاد برا (أوروبا) للعلاج منها بلا جدوى، وقيل له ان الرجل يمضي الليل يصرخ من الألم، ولا يظهر من جوفه سوى القيح والدم. وأهل الديار السعودية يدعون عليه، جراء ما فعله فيهم قبل ثلاثين سنة، أما العم فيسأل الله العفو والعافية لنفسه وأهله وصالح المسلمين. حكى له أحد عمال القلعة ان عوارض الخرف بدت على محمد علي، وصار يتلعثم في كلامه وتضطرب حركته، ولما ذهب قبل فترة للسلطان ليبحث تعديل اتفاقية لندن، كان في وهن شديد ورعدة. ولما صعد الدرجات الثلاث للعرش، في طوب قابي سقط على وجهه، وقيل إنه كان يحاول تقبيل قدم السلطان، أو انه تعثر في طرف

ردائه، ومع هذا عاد لمصر خالي الوفاض، حيث لا أحد يجرؤ على مخالفة فكتوريا ملكة الانجليز. كانت احدى معضلات تلك الاتفاقية انها تجعل ولاية مصر، للأكبر سناً من ذريته، وفي هذه الحالة كان عباس بن طوسون هو الأكبر بعد عمه إبراهيم، مما يثير حنق بقية الأمراء، بخاصة ان ولاية عباس على الحجاز، كشفت المزيد عن سوء تفكيره وقلة تدبيره لشؤون الحكم. وأشراف مكة لم يقروا له بالرئاسة عليهم، واعتبروه قائد لحامية جدة التركية، كما ان حبه للمال وتسلطه على بعض أملاك الأهالي، أثار حنق الكثير عليه وقدموا عرائض بذلك للخليفة. زاد اللغط في قصر محمد علي، وتسربت أنباء مخاصي جناح الحريم، عن تدهور حالته العقلية ونقلوه لقصره في الإسكندرية، ثم جاء جواب من إسطنبول بالموافقة على ان يكون ولده الكبير (إبراهيم) والي مصر. شعر العم بالقلق من الاضطراب في شؤون مصر، حيث غدا عباس هو ولي العهد، وسيعود من جدة ليعد نفسه لتولي الحكم، لذا قرر الرحيل جنوبا رغم حرارة الهواء. كان رفاقه يتحدثون عن كثرة عدد أبناء محمد علي، ولا أحد يؤكد له كم هم؟ بل الأقوال إنهم بين عشرين وثلاثين، إضافة لحشد غفير من الحفدة، وأبناء الزوجات من رجال آخرين، جرى ضمهم لنسبه مخالفة للشرع. لم يمهل القدر إبراهيم ليكون حاكم مصر إلا أقل من مائة يوم، وبقي والده حياً لكنه فاقد لكامل قواه العقلية، وتولى عباس بن طوسون الولاية، فقرر العم زيد المغادرة عائداً لبلاد العرب. لم يسعفه الوقت لتصفية كافة أعماله، فترك البقية في عهدة أحد الثقات، وهو يزمع العودة لمصر التي طاب له المقام فيها. ركب مع قافلة متجهة نحو عيذاب، ومن هناك استقل سفينة إلى رابغ، وقد أحرم بالعمرة فوجد زحام من جموع الحجيج، العائدين لمصر والمغرب وتكرور بعد ان أدوا المناسك.

استقر بمكة المشرفة مع رفاقه واثنان من عماله، وانتظر عودة معاونه ببعض المال من بيع الدواب والأطعمة، وطاب له المقام بجوار البيت الحرام، حيث ان الشتاء معتدل. كما ان أسواقها عامرة بأصناف مختلفة من كافة أرجاء الدنيا، والأسعار معتدلة والطرق سهلة وآمنة، والمساكن جيدة والطرق مرتبة، مقارنة بالحريق والمفيجر والحائر، لكنها دون ما في قاهرة المعز الفاطمي. أما الأفضل من ذلك فهي حلقات العلم والتدريس في الحرم وبجواره، حيث يوجد فقهاء أكثرهم على المذهب الحنفي، وآخرون على المذاهب الأخرى، رغم ان الخليفة أقر الأول فقط، لكن لا أحد ينهى الناس عن التعليم. لكنه استاء من مظاهر التشيع الخفيفة، على مذهب زيد بن علي بن الحسين (سبط النبي عليه الصلاة والسلام) أي الزيدية أو الزيود كما يسميهم البعض. كانت تأتيه أنباء أهله أسرع مما في مصر، وكذلك أخبار إمارة الرياض التي يتولاها الإمام فيصل بن تركي، منذ عودته من منفاه (محبسه!) في حنفية الفسطاط. ذات يوم التقى في الحرم رجل ذو سمت ووقار، وسأله عما إذا كان نجدي كما تشير ملامحه، أو مصري مثل هندامه وعمامته؟ تبادلا الحديث ووجده طيب المعشر نقي التعامل، عليه ملامح الوجاهة والثراء ومعه ثلاثة من

الخدم، وعرف انه من عتيبة الحجاز (برقا) التي تسكن أسفل جبال السروات (تهامة) وتمتد مضاربها ومراعيها إلى عالية نجد، شرق وشمال الطائف وحضن، وفي بعض السنين يهاجرون جوار قرابتهم الروقية، حتى يصلوا رمال النفود غرب تلال طويق. لاحقاً تبادلا الزيارات في مسكن كل منهم، العم شمال شرق الحرم (الشِعب) والعتيبي بعد المعلاة (المحصب) حيث تساءل العم عن أحوال مكة لما جاءها الأمير عباس بن طوسون كحاكم. فأوضح له الرجل ان الأشراف هم حكام أم القرى منذ مئات السنين، وقد استهانوا بوجود عباس عندهم، لأنه مجرد مشرف على ميناء جدة كمساعد للوالي التركي، أما مكة (والطائف) فقد منح السلطان سليم حكمها لذرية أبا نمي، قبل ثلاثة قرون وما زالوا كذلك. لما طالت النقاشات لعدة أيام بينهما عن حال أشراف مكة، عرض عليه الرجل ان يزوروا جار لهم يعرف الكثير عنهم.

لما جلسوا عنده وجدوه غزير العلم والمعارف، وذو تحيزات ومزاج خاص يؤثر على تعابيره، لكنه لم يباشر بيان أحوال أشراف مكة، بل سأل العم زيد بن عبدالله، عما يعرفه عنهم خاصة وعن المنتسبين "للسلالة النبوية" عامة. قال له ان ما يعلمه ان النبي عليه الصلاة والسلام (أبا القاسم) كان له أبناء ذكور لكن أحد منهم لم يُعقِب، أما بناته فكان لهن أزواج وذرية، ولا نعرف عنهم الكثير ما عدا فاطمة التي تزوجت ابن عمها علي، الذي أنجبت منه حسن وحسين، وحسان الذي مات صغيراً وعدد من البنات. وبعد وفاة المصطفى تولى خلافته أبوبكر ثم عمر، وتلاهما بالشورى عثمان الأموي الذي سبق ان تزوج اثنتان من بناته، وحدثت الفتنة الأولى لما جاء خوارج من مصر وقتلوه في داره، وبايعوا علي ليكون الخليفة فاعترض والي الشام معاوية الأموي، وطلب القصاص من قتلة عمه. فثارت الفتنة الثانية ونشب القتال بينهما، إلا ان كونهما من الصحابة المقربين، جعلت الأمر ينتهي إلى هدنة بينهما لحقن الدماء. لكن انشقاق بعض شيعة علي رضي الله عنه، جعلهم يخرجون عن طاعته ثم قتلوه. فتولى الحكم معاوية من عاصمته دمشق، واجتمع المسلمون على خليفة واحد لعشرين سنة، الذي لما أحس بشيخوخته أخذ البيعة لولده ليكون ولي العهد، فاعترض بعض الصحابة على التوريث مثل القياصرة، وخرج الحسين بن علي من مكة لشيعة والده في الكوفة، لكنه استشهد في كربلاء وصارت الفتنة الثالثة الكبرى. حيث تعارض بنو هاشم بن عبد مناف، مع ذرية أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وصار نزاع القرابة على كرسي الحكم، ملحمة سفكت فيها دماء غزيرة، وتمخضت عن أفكار منحرفة يعاني منها كل مسلم. ثم قرر فرعي الهاشمية (الطالبيون والعباسيون) التحالف ضد الأمويين، فأسقطوا دولتهم بعد سبعين سنة من كربلاء، لكنهما اختلفوا بحدة لما أسس حفدة العباس دولتهم، فقاتلهم حفدة علي بن أبي طالب في مواقعات مرتبكة، تمخضت عن هزائم فادحة. وهروبهم إلى نواحي بعيدة عن العاصمة الجديدة (بغداد) وبعد نحو قرنين ظهر بعض المنتسبين لذرية بنت النبي عليهما السلام، وأهمهم

الفاطميون الذين أجمع أكثر المسلمين على كذب ادعائهم، وأنهم ليسوا سوى عبيديون من القيروان لا يمتون للسلالة النبوية الطاهرة بعرق. وقبلهم روافض النجف الذين أكثرهم من مجوس الديلم، في شمال بلاد فارس (جيلان أو كيلان) استغلوا روايات مدلسة عن مقتل الإمام علي وبعض ذريته، ليدعوا غيرتهم على الإسلام وهم حرب عليه. ورغم زوال دولة الأمويين ثم دولة العباسيين، إلا أنه حتى الآن مازال البعض من ذرية الإمام علي بن أبي طالب، من زوجته الأولى (فاطمة الزهراء عليها السلام) عميدة أهل البيت، يطالبون بميزات ومناصب ورئاسة كونهم طالبيون، ولم يحصلوا على شيء من ذلك إلا بمقابل من ذوي السلطة العليا المتقلبة.

حدق فيهما الرجل وقال للعم زيد إن لديه معارف عن الأشراف والسادات، لكن يلزمها إزالة الاختزال والتناثر، كما أنها لا تشمل معلومات عن أسلاف حكام مكة، الذين هم من نسل الحسن بن علي، أكبر أبناء بنت رسول الله وسلالته. لذا سأبين لك ما قد يفيدك لمعرفة المزيد عن هؤلاء أشراف مكة. ثم باشر العد على أصابع يمناه، وقال ان حشود من الناس ذوي المشارب المختلفة، حرضوا الحسن لإنهاء الهدنة مع معاوية السفياني الأموي، والعودة لحسم الخلاف بالسيف، واستعادة الحكم على الشام ومصر منه. لكن شخصية وطباع الحسن جعلته لا يرغب استمرار سفك الدماء بين المسلمين، والتوصل لمصالحة تجعل معاوية الخليفة والحسن معاونه وولي عهده. وبقي الأمر كذلك عشر سنوات، ثم توفي (ربما مسموم!) فدعا البعض معاوية ان يعين شقيقه الأصغر (الحسين) مكانه، لكنه تذرع بعدم ورود ذلك في المعاهدة بينهما. ولما زادت أمراض الشيخوخة على معاوية، عرض ان يبايع الناس ولده ليكون خليفته، لكن كبار الصحابة رفضوا واقترحوا تنصيب الحسين بدله. ثم كتب أهل الكوفة للحسين أنهم شيعة أبيه، ودعوه للمسير إليهم من الحجاز، لينصبوه أميراً للمؤمنين ويقاتلوا يزيد، ورغم نصح قرابته له بالتريث حتى بعد الحج، لكي يخرج معه حشد من أنصاره، لكنه أبى وتوجه للعراق معه بعض أهله ونسائه وخدمه. ولما أقبل على الفرات أرسل والي الكوفة الأموي كتيبة تأمره أن يعود أدراجه، كما قبض على عدد من شيعته، ومنع ان يتوجه نحوه أحد يناصره. رأى الحسين (رضي الله عنه) عدم ملائمة العودة لمكة، وظن ان بقية الناس سيتوجهون نحوه فور انتهاء الحج، ونصب مخيمه في أرض فلاة، وجلس ينتظر قدوم المدد من الحجاز والعراق. كان الماء شحيح في كربلاء، وقرر بعض الخدم التوجه نحو الطف على مسيرة ساعة، حيث توجد عين ماء يتجمهر عليها البدو، فجرت مشاجرة بينهم ولما بلغ النبأ الحسين توجه مع قرابته نحوهم. هناك التقوا مع أعرابي شرير يقال له ذو الجوشن (الدرع) كان من شيعة الإمام علي بن أبي طالب، لكنه بعد هدنة صفين بينه ومعاوية أبغضه وخرج عليه. هناك جرى التحام اختلفت الروايات حوله، لكنه أسفر عن مقتل سيدنا الحسين وعدد من أقاربه ومماليكه، وقام أحدهم بحز رأسه وذهب به للكوفة، أما جسده الطاهر فقد وضعه الخدم

على فرسه وعادوا نحو كربلاء، حيث صاحت النسوة وبكى الصبية لتلك الفاجعة الأليمة. أرسل الوالي بعض رجاله وحريمه لكربلاء لإحضار أهل البيت، ودفن الموتى ومعالجة الجرحى، ولما دخلوا عليه صاحت فيه السيدة زينب الطاهرة، شقيقة الشهيد الحسين وبنت بنت رسول الله، هل رضيت الآن "يا ابن أبيك؟" فأقسم لها أنه لم يأمر بهذا ولم يرضه. ثم سألته عن الرأس ليدفن في قبره، فقال لها أنهم جاءوه به طالبين الأعطية، فوبخهم على فعلتهم وتوعدهم العقوبة، ففروا ربما لدمشق يريدون عرضه على يزيد. فأرادوا الرحيل خلفه ورفضوا البقاء عند أهل الكوفة، وجهز لهم ركاب لائق وتوجهوا للشام، حيث تلقاهم يزيد (السيدة زينب) وقد أعد لهم دار في الخضراء، لكنهم أرادوا الرأس الشريف فقال إنه قد حبس من أحضروه وهم عند القاضي. ثم واساهم وبين أنه وجماعة المسلمين صلوا عليه، ودفنوه شرق مسجد كنيسة النبي يحي بن زكريا، وقد أعد لهم دار فسيحة لسكنهم بالجوار، لكنها رفضت ذلك حيث ستغادر البلدة قبل مغيب الشمس، وتريد أخذ الرأس بعيداً عن الكنيسة ليدفن جوار والدته في بقيع الغرقد. وجهز لهم ركاب حافل وباتوا ليلتهم جنوب دمشق، حيث يوجد حالياً مسجد (مقام الست) يزوره بعض أهل السنة، وحشود بكائية بشعة من الشيعة والروافض. إلا أنهم بعد أيام من المسير وصلوا عسقلان، وجاءت إحدى بنات الشهيد لعمتها، تبين أن الرأس الطاهر قد تفسخ وعاثت فيه الديدان، ولن يمكن الوصول به للمدينة المنورة. فقاموا بتجهيز مدفن له هناك وواصلوا المسير للحجاز، ومعهم أصغر أبناء الحسين (علي زين العابدين) الذي نجا من مقتلة الطف، حيث كان متوعك وبقي في مخيم كربلاء مع النسوة.

حدق الرجل فيهما وقال إن زيد قد سمى واقعة كربلاء الفتنة الكبرى، وهي على الصحيح إحدى الأحداث المؤلمة في تاريخنا، وقد أسهب في بيان ما لديه مؤكداً وجود خلاف واسع حول تفاصيل الأمر، ولكنه أدرج ما اتفق عليه غالبية أهل السنة والجماعة. كم أوضح ان الشيعة لديهم روايات مختلفة كلياً، أما الروافض فقد دلسوا كثير من الأقاويل التي لا يستسيغها عاقل، والطرف الرابع الذين يناصبون أهل البيت العداء لديهم سرد مشوش للأمر. لما طلب العم معرفة خلاصة أقوالهم، قال ان ذكر روايات الروافض والنواصب، تكفي لإيضاح مدى تضارب الأقاويل حول الحادثة، بخاصة ان منطقة كربلاء آنذاك كانت حديثة عهد بالإسلام. فلم تمضي سوى أقل من خمسين سنة، على دخول جيوش الخليفة الراشد عمر لتلك القرى، التي دارت في نواحيها معارك القادسية ونهاوند والمدائن، والحيرة ليست بعيدة حيث كان سكانها مناذرة من قحطان اليمانية. إلا ان مجاورتهم لمجوس الفُرس جعلت وثنيتهم تتأثر بعبادة النار، وكان كثير من العرب والعجم في جنوب وغرب العراق، ما زالوا متأثرين بالطباع المجوسية رغم دخولهم الواهي في الإسلام. لقد مال الروافض في سرد لأحداث يوم عاشوراء ذاك، للمبالغة والتهويل الفج مما لا يستسيغه أي مدرك للأمور، مثل ادعائهم عدم خذلان مندوب الحسين (مسلم بن عقيل)

بل خرجوا في أكثر من خمسة وعشرين ألف فارس لتلقي الركب الشريف، لكن ولد ابن أبيه أرسل أربعين ألف مقاتل مدججين بالسلاح، وجرت منازلة عظمى قتل فيها الآلاف. وأن الحسين كان على صهوة جواده محارباً، ثم التف عليه عشرات من جنود بني أمية حتى استشهد. وعندها تظللت السماء بغيمة حمراء أمطرت الدماء، حتى تفرق الناس في النواحي، وكانوا في القرى البعيدة كلما رفعوا حجر فاضت عليهم الدماء من باطن الأرض، كما تحولت جداول الماء في غرب الفرات لأنهار دموية. ثم توجه البغاة لمخيم النساء وقتلوا من فيها حتى الأطفال الرضع، وأمروا سيدات البيت النبوي الشريف بنزع ملابسهن، وأركبوهن عرايا ومعهن الرأس إلى دمشق، لكن الله أمر ان تنبت للإبل أسنمة ثانية حتى تسترهن طيلة السفر من العراق للشام. ولما وصلوا عند يزيد وجدوه يعبث في الرأس بقطعة حديد معه، ويستهزئ به وبأبيه وجده، وغير ذلك من ترهات البكاء الكاذب البشع الذي ما زالوا يمارسونه.

بعدها قال لهم الرجل ان رواية النواصب تختلف عن ذاك كلياً، فطلبوا منه ان يسرد لهم ما لديه من أقوالهم، فذكر ان أحدهم كان يتحدث في زمنه عن تلك الحادثة، وبين انه وجماعته في الطف لم يكونوا مبغضين لآل بيت النبي ولا خوارج، لكنهم يأبون الضيم ومخالفة القواعد الشرعية. ولما كانوا يسقون من ذلك الماء الشحيح، جاءهم غرباء ظنوهم من أعراب الحيرة، يتكلمون بتعالي وغطرسة وهم غرباء، فحدثت ملاسنة معهم وغاب بعضهم طويلاً، ثم عادوا ومعهم نفر مسلحين عليهم مظهر رث، إما لعوز او لوعثاء السفر وتحدثوا معهم بغلظة وجفاء. أثناء تلك المقاولة تضارب اثنان من المماليك بالعصي، ثم وضع كبيرهم يده على خنجره، فعاجله أحد رجالنا بطعنة في خاصرته، فرفع بعض الرجال من الطرفين سيوفهم، في مناوشة كريهة أدت إلى مقتل نحو عشرة. ولما صاح أحدهم ان سبط رسول الله قد أصيب، دخلنا الذعر وتوقف النزاع وحاول البعض تضميد جراحه، بينما سارع الكثير للفرار من المكان، وقال واحد منا هذا الحسين وهو من يطلبه عبيدالله والي الكوفة، ولم أدري ما أفعل سوى الهرب من المكان نحو منازلنا شمالا. بعد ثلاث سنوات لما مات يزيد، قال ذلك الرجل لجماعته انه يبغضه، ولم يكن يحمل ضغينة لأحد من أهل البيت، لكنه يكره سوء تدبير بعضهم، وتخاذلهم عن الجهاد وحبهم للملذات الدنيوية. وبين ان والده قبل أربعين سنة من مشاجرة الطف، خرج في سرية بقيادة علي بن أبي طالب، لمقاتلة بقايا الكفار في نواحي اليمن، ولما وصلوا بلدة عامرة عرض عليهم واليها المبيت عندهم. وعند الفجر خرج عليهم علي للصلاة ورأسه يقطر ماء، فسألوه إذا اغتسل من احتلام أو جنابة، فلما بين لهم قالوا كيف لك هذا؟ وليس لك هنا زوجة ولا ملك يمين، فعرفوا أنه أخذ إحدى السبايا ليقضي وطره، فرفضوا إمامته فهو من الغلول. لما عادوا للطائف اشتكوا لعمر بن الخطاب، فاستدعى علي الذي اتهمهم انهم خوارج مثل حرقوص بن زهير، ويستحقون إقامة الحد عليهم، ودافعوا بالقول انهم رأوا منكراً لا

يرضى عنه الله ورسوله. لكن الفاروق وبخهم وأخبر علي أنهم ليسوا كفار، لكنهم ناصبوه العداء لما ظنوا فيه من عمل غير طيب. ومما قاله النواصب أنهم يبغضون غلاة المتشيعة، الذين خرجوا عن الإسلام بقولهم إن الحسين هو الذي خلق الله، وان النار خلقت الحسين الذي خلق السماوات والأرض والأنبياء والبشر، كما أنهم يسمون بيوت الله (المساجد) حسينيات. وان أولئك الفرق المتشيعة ليسوا إلا مجوس، ومن المعلوم ان الحسين رضي الله عنه، ليست له ذرية إلا من واحد من أبنائه، هو علي الملقب بالسجاد أو زين العابدين، وأمه ابنة يزدجرد قائد جيوش كسرى لمحاربة المسلمين، وكافة ذرية الحسين خرجت من تلك الرحم المجوسية. إضافة لذلك يدعي النواصب ان الحسين لم يحسن التفكير والتدبير، فكيف يخرج بنسائه وأطفاله وخدمه، لمحاربة الدولة الأموية التي غزت الشرق والغرب، غير آبه بنصائح قرابته وكبار الصحابة. الذين اوصوه بالتريث أيام قليلة لحين انتهاء الحج، حتى يصحبوه في جيش قوي، يواجه به حاكم الكوفة، وليس في خروج كأنه نزهة برية. وأضاف البعض منهم ان تصرفات الحسين، منذ أرسله الفاروق في بعض الغزوات كانت تتسم بالطيش.

ثم أوضح لهم الرجل ان مأساة استشهاد الحسين، دار حولها كثير من اللغط واختلفت الروايات حول حقيقة ما جرى، حتى في المصادر الشيعية نفسها، حيث يختلفون حول عدد شهداء الحادثة، بين الخمسة أو عشرين وكذلك أسماء بعضهم. فالعباس لا يُعرف ما إذا كان أخ الحسين أو ولد الحسن؟ وعلي ابن الحسين يقال أنه كان في كربلاء صغير السن مع النساء، ويقول آخرون انه بقي في مكة عند قرابة أخواله! كما ان مكان دفن الجثمان لم يكن معروفاً لقرنين من الزمن. ومع التناقض في السرد تبدو الأمور ملتبسة، وتصعب الثقة في صحة كافة الروايات، إلا من قبل الطوائف المتكسبة من تبعات الادعاءات المتطرفة. مثل مجوس الروافض الذين يسبون أمهات المؤمنين، ويلعنون الخلفاء الراشدين والصحابة المقربين، ويدعون ان القرآن باطل ولديهم مصحف فاطمة السري. وحاشا بالزهراء البتول ان تكتم أو تخفي شيء من الوحي عن أتباع أبيها، كيف وهي تقرأ ما تلاه عليهم عن "الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات ---- يلعنهم الله" وفي آية أخرى "الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب --- لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" لكن المجوس مدعي الإسلام يكذبون ولا يصدقهم إلا البلهاء، ويدعون حبهم لآل البيت وأنهم مستضعفون، يستدرجون الصالحين للقتل ثم يبكون ويلطمون عليهم، وهم أعداء الإسلام وآل البيت قاتلهم الله أنى يؤفكون. بعدها قال الداغستاني ان الحسن والحسين رضي الله عنهما، لم يكونا أخرقين لا يحسنون السياسة، ولكن الله لم يرد لهما الدخول في معترك التنافس والتقاتل على مقاعد السلطة والرئاسة، بل ولدوا ونشأوا في بيت الوحي، ثم ترعرعوا في كنف أبيهم الصمصام، وصحابة جدهم خيار الناس الأولين والآخرين. فكانوا أهلا ليعلموا الناس أصول دينهم، ويبينوا ما تشابه على البعض

في كتاب الله وسنة نبيه، ويفتونهم في حكم النوازل والمستجدات، وينيروا للأمة سبيل الرشاد والعفاف، وقد رأوا جدهم ينهاهم عن أكل تمرة لأنها قد تكون من الصدقة، ويتركوا التنازع على الإمارة والملك لأصحاب الدهاء والمكر. لكن للأسف ها نحن نراهم الآن يقتلون بعضهم على مقاعد السلطة الزائفة، وإذا تولوا شؤون البلاد أرهقوا أهل القبلة بالضرائب والمكوس، وتوجهوا لتكديس الأموال وإنفاقها على القصور الفاخرة، وأطايب الأطعمة والملابس والنساء الجميلات، وقد عاصرت في الخمسين سنة الماضية بعضهم، سواء من آل مساعد أو عون وبقية أشراف مكة. عندها أشار له العم زيد شاكراً بيانه لبعض أحوال سبطي رسول الله، من أمور لا يتفق بعضها مع ما يعرفه، لكنه قفز أكثر من ألف سنة منذ انتقالهما للرفيق الأعلى، حتى بلغ الحكام الحاليين للحجاز، بدون معرفة كيف وصلوا لما هم عليه الآن. أفاده الرجل ان الوقت ضاق ويخشى ان يكونوا قد سأموا تلك الذكريات، لكن العم أكد رغبته السابقة في معرفة وصول القوم للشرافة، وطلب منه ان يدخل مكانه قرب الحرم بعد عصر الغد، ويبين لهم زبدة ما يرغب معرفته عن هؤلاء الأشراف وكيف آلت لهم الأمور بعد وفاة السبطين؟

في دار العم المستأجرة لغير فترة الحج، قال له الرجل إنه لن يستطيع الحديث بكل ما يعرفه، حيث يجلس معهم رجال محسوبين على شريف مكة، ولن ترضيهم الحقيقة المجردة، فلا يريدون سماع سوى التمجيد والتفخيم للكبراء. بعد تناول طعام العشي طلب العتيبي، استئناف الحديث عن سبطي رسول الله وعلاقتهما بحكام الحجاز، لكن أحد الحاضرين اكفهر وجهه، قائلا إياكم ومقولات هذا الداغستاني، فهو يبغض الأشراف ويتلهف على تتبع روايات النواصب، الذين يروجون لأقوال تصف السادة بالسوء، وتضع فيهم المثالب والنواقص لغرض ما. تململ الرجل في جلسته وأشهد الله، أنه لا يحمل لذرية السبطين سوى التوقير والإجلال، لكنه يبحث دوماً عن الحقيقة غير الملتبسة بالأقاويل، ثم سأل الصحب ان يبينوا له الفرق بين الأشراف والسادة. لم يقم أحد منهم بالتطوع لبيان ذلك، فدعا العم شيخ هرِم من قريش من بادية عرفات والنعمان، لكي يبدي رأيه في ذلك، وكان يعرف الرجل منذ زمن حيث يأتي للحريق لجلب الأغنام النجدية، والتقاه صدفة في المسجد الحرام. قال البدوي إن نسل الحسن والحسين سادة، لا تحل لهم الصدقات بل لهم نصيب من الفيء، وقال فيهما المعصوم انهما "سيدا شباب الجنة" ومن هنا التسمية، فالسيد هو ذو السؤدد والمكانة وله التدبير وقال تعالى "فألفيا سيدها لدى الباب" وهو زوجها. أما الشرافة فهي العلو والمكان المرتفع، والشرفة مكان عالي ينظر منه المرء إلى ما حوله بعيداً، وهو لقب اختص به آل أبا نمي أنفسهم بعد ان وهبهم السلطان سليم العثماني حكم مكة والطائف، لكن بعض الطالبيين أطلقوه على أنفسهم للتكبر. قاطعه أحد قرابة صهر الأشراف، ووصمه أنه لا يعرف حقيقة الأمر، متهماً إياه انه من جهينة ويدعي القرشية، فرد عليه آخر ان يبين للجميع ما لديه ويجيب على التساؤل. سارع العم

بطلب القهوة حتى لا يحتدم النقاش، نحو ما لا جدوى منه، وبداء البعض مغادرة المجلس تباعا. وعاتب الداغستاني صديقه العتيبي لطلب الحديث في الأمر الحرج لبعض الحضور، واتفقوا على الالتقاء في الحرم بعد فريضة العشاء.

قال لهما الرجل ان استشهاد الحسين في حادثة كربلاء، أثارت حفيظة المسلمين على بني أمية، ولم تمضي ثلاث سنين إلا وقد مات يزيد بن معاوية، ثم انتقل الحكم في دمشق إلى فرع أموي آخر، وهو بنو مروان الذي كان والده (الحكم) ابن عم سيدنا عثمان بن عفان، لكن المصطفي كان ساخطاً عليه وأهدر دمه، ولاحقا اكتفى بنفيه للطائف. لقد أسس تلك السلالة الحاكمة عبدالملك بن مروان، الذي تسنم أمور الدولة وهي في حالة مزرية، فهناك تمرد الحجاز (ابن الزبير) وتمرد العراق، بل لما خرج من دمشق لمحاربة العصاة تمرد عليه فيها الضحاك، ويضاف لذلك معارضة الطالبيين (ذرية علي بن أبي طالب) بل وبعض قرابته من الأمويين. لقد جابه ذلك بثلاثة أمور --- المجاملة والدنانير والسيف-- كما كان صريحاً في اعلان سياسته، ودليل ذلك لما قضى على عصيان ابن عمه، فخطب في الناس مبينا أنه سيغض النظر عن سفاسف الأقوال وتفاهة الأفعال، أما من يرفع رآية أو يُشهِر سلاح فالموت له "هذا عمرو بن سعيد حقه وحقه قرابته وابنه، قال برأسه هكذا فقلت بسيفي هكذا!" إنها سياسة كافة الحكام غير الشوريين، لكن لم يصرح بها أحد مثله. وخلال سنوات قليلة هدأت الفتن، وحكم المسلمين عشرين سنة ازدهرت فيها أحوالهم، فتوسعت رقعة البلاد واطمأن العباد. ورغم ما ادعاه المدلسون من أحاديث عن نزو صبية بني مروان على منبره فلم يثبت من ذلك شيء، بل ان عمر بن عبدالعزيز بن مروان، يكاد يجمع الناس انه خامس الخلفاء الراشدين، لورعه وزهده وحبه لذرية السيدة فاطمة الزهراء. حتى ان علي بن الحسين (زين العابدين السجاد) الابن الوحيد الباقي من ذرية الشهيد لم يكن يفارق مجلسه، وعمر لا يخالف رأيه ومشورته واجتهاده في محدثات الأمور. ثم في عهد ابنه هشام بن عبدالملك، بلغت دولة الإسلام ذروة اتساعها، من غرب الصين إلى بلاد الفرنجة (البرنييه) وفي عهد هارون الرشيد لم تكن بغداد تسيطر إلا على أقل من ثلثي تلك المساحة التي حكمتها دمشق الأموية. لكن في زمن ذلك الخليفة (هشام) جرت نكبة أخرى على ذرية الحسين، وعادت الفتن تطل برؤوسها حيث قُتل الإمام الفقيه زيد بن علي بن الحسين، لما أعلن حركة تمرد ضد دمشق لسوء تصرف هشام معه. وقد أغواه أهل الكوفة بشن الحرب، ثم امتحنوه فوجدوه يأبى سب الشيخين (أبو بكر وعمر) ولعن عثمان، فتخلوا عنه كعادة الروافض الدنيئة مع أسلافه، فقتل في المنازلة غير المتكافئة، وبادر المجوس للتباكي عليه ولطم الوجوه، وجعل ذلك ذريعة لمزيد من إحداثهم الفتن بين المسلمين، على أمل عودة أهل القبلة للوثنية. وذاك الرجل (زيد بن علي) كان فقيه متميز أخذ عنه أبوحنيفة، وانتشر مذهبه في بلاد جيلان (الكيلانية) وطبرستان، وهو المذهب الذي عليه أشراف مكة حالياً (آنذاك)

وقد تعرض على مر السنين للتحريف، وغدا قريب من التشيع الفارسي، ففي الأذان بدعة "حي على خير العمل" إلا أنهم يصلون مع المسلمين الجماعة، في المساجد التي لا يسمونها حسينيات، وهم أخف طوائف الشيعة تطرفاً. وقد أدى استشهاده لتذمر جمهرة علماء الشريعة، وسخط العامة على الحكم الأموي، إلا ان ذلك المذهب انحسر قبوله، فاقتصر على أشراف الحجاز، وأجزاء من اليمن ووسط آسيا وغرب أفريقية.

لم تمضي سوى سنوات قليلة إلا وقد تحالفت ذرية الحسن والحسين، مع ذرية أبناء عمهم العباس بن عبد المطلب. حيث صارت خراسان موالية لهم، وتجمعت جحافل من عرب قحطان وعدنان، مع قوم من الخراسانيين وزحفوا نحو الكوفة، ثم هزمت عساكر بني أمية، بقيادة مروان الثاني (الحمار) في الزاب. كان الاتفاق بين الطالبيين والعباسيين أن يكون الحكم في يد من يرضى به المسلمون من الهاشميين، لكن ذرية الحسن والحسين رفضوا ذلك، وأرادوا الخلافة في أهل البيت فقط (ذرية فاطمة) ويعاونهم ذرية عم النبي العباس. ولما لم يكن لديهم الدهاء والمكر، انقاد الخرسانيون (أبو مسلم) للعباس السفاح، الذي أعمل السيوف في رقاب الأمويين الهاربين، بل زاد في طغيانه حتى أمر بنبش قبور بعض أسلافهم، وجلد بقايا جثثهم ورفاتهم انتقاماً لما جرى لقرابته، وفر بعضهم للجبال أو ما وراء البحار للنجاة بحياته. لكن قدر الله لم يمهله طويلا، فمات وتولى الحكم أخوه (الأكبر) الداهية (عبدالله) أبو جعفر المنصور، الذي استدعى كبار حفدة الحسن والحسين، وحذرهم من مغبة ما يقوم به بعضهم، من الدعوة لأنفسهم ليكونوا حكام. وذكرهم بما اتفقوا عليه ان يكون الأمر شورى للمسلمين، ليختاروا من يرضون عنه من بني هاشم، فرفض أكثرهم ذلك وقالوا ان الحكم "للرضا من آل البيت" فقط. هادنهم لبعض الوقت وأجزل لهم العطايا وأرسل الناصحين، وقالوا لهم ان الحسن بويع بالخلافة بعد اغتيال والده، لكنه بعد شهور تنازل عنها لمعاوية، من اجل الإصلاح بين المسلمين وحقن دمائهم. وليس مقابل "خِرق ودراهم" كما يدعي عليه بعض من يخدعونهم بالقول إنهم شيعته الآن، وهم الذين خذلوه في أثناء المعركة، كما فعلوا مع أبيه في صفين قبل ذلك. لكنهم أبوا النصح وأصروا على تولي الخلافة كورثة لأبيهم، رغم ان الإمارة في الإسلام ليست وراثية كما عند كسرى وقيصر! بعد ذلك انفرد بهم وقال ان عليهم الكف عن التفاخر بالأمهات، فذلك ينقص قدرهم لأنه استخفاف بالحكماء، الذين يعرفون مذهب العرب "بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد" وهم ذرية علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب، وهو من ذرية عبدالله بن عباس بن عبد المطلب، ونحن لم نستخف بكم ونقول انكم ذرية العم الكافر (أبوطالب) ولستم ذرية العم المؤمن (عباس) الذي آزر ابن أخيه في فتح مكة. كما ان جدي هو الذي تولى تجهيز ودفن رسول الله، وهو كبير عصبة النبي له حق الإرث شرعاً، وليس لزوج ابنته (علي) أي حق شرعي من إرث حماه؟

ثم عمد إلى مناظرة بعضهم في المجلس العام، حيث استنكر عليهم تحركات أبنائهم في البصرة والمدينة، وإسباغ الألقاب الباهتة على أنفسهم، مثل المثنى والمثلث والمحض والنفس الزكية والغمر والشبيه. وردوا بجفاء ان المثنى حسن ابن الحسن، وولده أيضاً حسن المثلث، والألقاب أسداها لهم مريدو أهل البيت، وهي صفة كما أنه سمى نفسه المنصور. أما المحض فلأن عِرقهُ صافي لم تشبه دماء الجواري، فقد ولدته فاطمة الزهراء مرتين، فأبوه من نسل الحسن وأمه من نسل الحسين، فتبسم أبو جعفر قائلا إنه خير من جده إذاً، ففاطمة ولدت الحسن مرة واحدة فقط! فضج المجلس بالضحك. عندها أضاف لهم القول ان نبي الله إسماعيل أمه جارية، وهو خير منكم أنتم وآبائكم جميعا وأمي جارية أيضا، وأنا كذلك خير منكم لربي وأمانة رعيتي وحسن تدبيري، فساد الصمت في المكان وغادر القوم ساخطون. مضت الشهور وجواسيس المنصور يأتونه بأخبار الحسنيين، وأنهم يطلبون من الناس البيعة لهم، وقد التف حولهم جمع من محبي الشغب، وأخذوا يجمعون السلاح والمال ليعلنوا العصيان عليه. فبادر للقبض على عدد من كبارهم تجاوز الثلاثين، وأحضرهم لمجلسه وأمرهم بالتوقيع على مكتوب، يرسله للفارين من شبابهم في العراقين (البصرة والكوفة) والحجاز (المدينة ومكة) يأمرونهم فيه ان يكفوا عن الأذى. أمضى أكثر من نصفهم شارته على القرطاسة، إلا ان البقية تذرعوا بعدم ملائمة تدخلهم في ذلك، والأمر من قبل وبعد لله يفعل ما يشاء. فتوعدهم بخشونة ان العاصين سيتعرضون للسجن والعذاب، وان قرابتهم الخارجين عليه سيقتلون، وأما إذا جاءوه مذعنين فسيلقون الأمان وجزيل العطاء منه. تسرع شيخ منهم بالقول "هل تشرب الطلا يا أبا جعفر؟" فغضب منه ورد عليه انه يشرب الدماء، وما زال متعطشاً للمزيد منها، ثم أنهى ذلك اللقاء بأن أمر الحرس بإلقائهم في قعر مظلمة، وكانوا أكثر من عشرة من حفدة الحسن أبن فاطمة الزهراء، وبعضهم تجاوز السبعين سنة وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة.

أشار العتيبي للرجل ألا يكمل حتى يبين لهم القصد من "الطلا" فأوضح له ان هذا يخرج عن الغرض من مجلسهم، الذي يتداولون فيه حول أجداد حكام مكة والطائف، فقال لهم العم زيد انه صنف من الخمور، فاعترض الرجل بأن الأمر ليس كذلك. ثم بين انه في تلك الحقبة (منتصف القرن الثاني) كانت هناك مناظرات ومقاولات حادة، بين الإمام أبو حنيفة العراقي من أصول فارسية، والإمام مالك الحجازي من نسل الأنصار في المدينة المنورة. ومن بين نقاط الخلاف "مسائل المشارب" وما إذا كان تحريم الخمر يشمل كل ما فيه ولو نزر يسير من "الغول" أو انه يمنع العربدة والسكر فقط؟ ويرى العراقيون ان قول "ما أسكر كثيره فقليله حرام" لم ينزل في كتاب الله، ولم يقله نبيه ولا الصحابة ولا التابعين، وإنما هو من لسان بعض أهل المدينة المتأخرين. والحديث الصحيح عندهم عن المعصوم، ان انتباذ ماء (عصير) الفواكه والحبوب جائز مع وكاء

السقاء ليومين أو ثلاثة فقط، وإن النهي عن الدباء والمزفت والحنتم منسوخ، ويرون في ذلك رخصة بما شابه شيء يسير من الغول لا يُسكِر! ثم قال إنهم صاروا يشربون ماء الورد المخفف، ومعه عسل وزبيب أو رمان وشعير ينتبذ لثلاث ليالي، يسمونه "الطيب الحلو" ويدعون أنه ينشط أمعائهم ويسكن خواطرهم؟ وكمحرر لهذه السيرة أقول للأحبة إن والدي رحمه الله كان ينهاني عن شرب أي سائل منزوع الكحول منه، لأن أصله نجس فاسد وبقيت على هذا بفضل الله طيلة عمري، حيث ان حمى الله محارمه، وعلينا تجنب كافة المشروبات المنزوع منها الكحول، أو ما قد يشوبها شيء يسير منه مثل السوبياء وغيرها.

طلب العم زيد العودة للحديث عن السلالة الشريفة، قال الداغستاني ان المنصور بعد أيام من احتجاز الحسنيين، أوفد لهم رسول يحثهم لقبول ما يراه شيخهم، أي جعفر الباقر حفيد الإمام علي بن الحسين، وهو الوحيد ممن بقي لهم عقب من ذرية سبط المصطفى. لكنهم رفضوا ذلك لأن الولاية لأكبر أبناء السيدة فاطمة الزهراء، ولما بينوا لهم ان الحسن قد تنازل عن الولاية لمعاوية الأموي، أما شقيقه الحسين الذي آلت اليه الولاية بعد وفاة أخيه، لم يتنازل عنها لأحد بل استشهد وهو يدافع عنها. ثم أوضحوا لهم ان المنصور قبل الانضواء تحت ولاية أخيه الأصغر، دفعوا بأن المنصور ابن جارية أما أخوه الأصغر فهو ابن حرة، لذا صار الأحق بها فاستشاط المنصور غاضباً، وأمر بنقلهم إلى محبس أسواء مظلم لا يعرفون فيه وجهة القبلة، وهوائه فاسد والطعام والماء شحيح، فزادت عليهم العلل وذوت أجسادهم. وادعى البعض أنه عذبهم بشدة، بل قيل إنه جاءهم ضحى يوم عيد النحر في معتقلهم، وخنق اثنان منهم بيديه حتى فاضت أرواحهم، وهي دعاوى شراذم (نخاولة) الشيعة في البصرة والمدينة، وهي أقاويل لا تنطلي على ذو عقل، فقد كان دائم المحاولة ليثنيهم عن مخالفته والخروج على اجماع الأمة. لكنه بالتأكيد أرسل جنوده في كافة البلدات، ودعمهم بالمال والسلاح للبحث عمن انشقوا عليه. وقد تمكن بعضهم من قتل نفر من ذرية الحسن بن علي (وفاطمة) مثل ذو النفس الزكية، وأخاه إبراهيم أبناء عبدالله المحض وغيرهم. بعد ذلك هدأت الأحوال في الكوفة، وتساهل المنصور مع أشياع ذرية الحسين، لكي يمارسوا بكائياتهم العاشورائية، ولطمهم الوجوه وشق الجيوب وضرب الرؤوس بالسكاكين والفؤوس، لكنه استمر على عادة الأمويين بمنع التجمهر في كربلاء، حيث لا أحد يعلم مكان قبر الحسين بالتحديد. ولما زاد الازعاج والضجيج في الكوفة، بنى المنصور قصوره قرب بستان (بغا داد) شمال الكوفة بمرحلة، ونقل إلى هناك عاصمة ملكه لعشرين سنة، حتى اختلطت أفكاره ومات خرفاً. وتولى الحكم بعده ولده محمد (بن عبدالله) الذي لقبه بالمهدي، ليقضي على جور الطالبيين كما يدعي! وحاول المهدي أخذ أمور الدولة بالحسنى واللين، ولم تكن هناك مصادمات فادحة مع أبناء عمه الطالبيين، رغم شدته على أهل البدع والزندقة. كانت أم أولاده الكبار

محظية يمنية مشوبة بعرق حبشي، تسمى خيزرانة وتتدخل في شؤون الدولة بحكمة وحزم قاطع. ولما توفي الخليفة بويع أكبر أبنائها (موسى الهادي) والثاني (هارون الرشيد) ولي عهده، ورغم ان فترة الهادي كانت لشهور، إلا انه حدثت فيها نكبة كبرى على ذرية الحسن بن علي سبط رسول الله عليه الصلاة والسلام. فقد جاء الوشاة إليه ان بعضهم لم يحضروا للبيعة، وأنهم متمردون التفت حولهم عصابات من البغاة والأشرار، ويلزم قمعهم في معاقلهم بالحجاز، لذا أرسل لولاته لمكافحتهم وقتلهم وإن كانوا متعلقين بأستار الكعبة المشرفة. يدعي بعض الروافض ان الحسنيين أحدثوا شغب في المسجد النبوي، واستولوا على الحكم وطردوا الوالي العباسي، ثم توجهوا في جيش عرمرم لفتح مكة، لكن مصادره الموثوقة تسرد خلاف ذلك. حيث كانوا مختبئين في مكان قرب جبل رضوى، يتعبدون الله ويرعون شؤونهم وأملاكهم وأوقاف الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقرروا الخروج منفردين للحج، وكانوا داخل حد الميقات فأحرموا من التنعيم، عند مسجد السيدة عائشة (الأقصى) رضي الله عنها. ورواية الروافض مختلة ولا تتفق مع سياق الأحداث، لكن ما ثبت لدينا (الداغستاني) أنهم وصلوا شعيب قربه تل صغير، يقال له "فخ" غير بعيد عن ريع أبو لهب، متجهين صوب الحجون (كِداء وليست كُدي) وكانوا محرمين وهم نحو المائة رجل، أكثر من نصفهم ذرية الحسن السبط والبقية خدم وموالي. وقرب الوادي في الزاهر المتاخم لذي طوى، برزت لهم كتيبة من الجنود العباسيين الأتراك، وأعملت فيهم الحديد وهم شبه عُزلٌ، فقتلت أكثر النسل الشريف وعلى رأسهم حسين بن علي (العابد) حفيد الحسن المثنى، ورهط من أبناء عمومته وقرابته، منهم بعض إخوة النفس الزكية (ادريس وسليمان ويحي وغيرهم) وابن طباطبا. والثابت ان بعض الخدم قُتلوا لما دافعوا عن الحسنيين، لكن أكثرهم فر مع الركائب التي تحمل صناديق الأموال، المعدة للنفقة والصدقات في موسم الحج، وربما ان أحدهم وشى بالركب لما أرسلوه في حاجة. ثم غادر الجنود المكان متجهين للحجون، وتركوا جثث القتلى في العراء تنهشها السباع والطيور الكواسر، ولم يثبت أنهم قطعوا الرؤوس وأرسلوها لبغداد، حيث لم يؤمروا بذلك. وكانت تلك نكبة كبرى تماثل بل يزيد ضحاياها عن كربلاء، لكن هل من أحد مثل الحسين رضي الله عنه، وجمعنا به في الفردوس الأعلى. وكما ان تلك تسببت في نشوء مذهب التشيع الحسيني، الذين منهم مهتد والبعض منهم فاسقون يجعلونه إلاه معبود، فقد تسببت نكبة فخ بعد قرن فيما هو أسواء، حيث استشهد أكثر أعيان النسل الحسني، وتفرق بقيتهم في أصقاع الأرض.

التقوا بعد أيام وأكمل لهم الداغستاني روايته لأصول أشراف مكة، فقال إن حادثة فخ أدخلت سخط جم في قلوب أهل القبلة، وبعدها بشهور مات الخليفة موسى الهادي (مسموماً أو مخنوقاٍ) وتولى شقيقه هارون الرشيد الحكم وعادت الخيزران للسيطرة! فولدها الخليفة ورضيعها البرمكي له الوزارة، وسمحوا للشيعة بالمزيد من البكاء والعويل في كل

مناسبة، ما داموا بعيدين عن العاصمة الجديدة بغداد. بل ادعى البعض أنهم يعرفون مكان قبر الحسين، وبنيت عدة غرف متباعدة كمزارات شريفة، يتكسبون منها بعض دراهم البسطاء والسذج، بعد ان كان الأمويون يمنعون أي تجمعات في كربلاء. في منتصف القرن الثالث ارتج المسلمون، لمقتل الخليفة المتوكل العباسي، على يد رئيس حرسه الكيلاني بالتآمر مع بعض القرابة، وسيطر الديلم أهل بلاد جيلان شرق البصرة، على بغداد عاصمة ديار الإسلام. معظم ولاة الأقاليم رفضوا الإذعان لهم، بل ان بعضهم رفض ارسال الخِراج لبغداد، وآخرون أعلنوا استقلالهم وأسسوا دول خاصة لهم، ومنهم ابن طولون في مصر ثم الإخشيد في الشام، والأغالبة والرستمية في الجزائر المغربية. وما استهل القرن الرابع إلا وبلاد المسلمين تعج بالفتن والقلاقل، فبعد ثورة الزنج في جنوب العراق، ظهر القرامطة في القطيف، وقُتِل الحُجاج عند الكعبة المشرفة وألقيت جثثهم في بئر زمزم، واختلطت على الناس أحوالهم بل وأنسابهم؟ وزاد سخط العامة والأعيان على الديلم، فحاولوا التقرب للشيعة فبنى زعيمهم (الداعي) الحضرة الحسينية على احدى غرف كربلاء، إلا ان غطرستهم على الخلفاء أدت لمزيد من البغض لهم، حتى انهم قتلوا اثنان من الخلفاء، وأخفوا آخر بأن صبوا في أذنه وعينه ماء حار (أو كاوي) وألبسوه أسمال بالية، وألقوه في منتصف الليل عند مسجد في قرية خارج سامراء، وهو يصيح أنه الخليفة ويتوعد الناس، ولما جاءه السفهاء والصبية صباحاً ظنوه معتوه فحصبوه. ثم في مطلع القرن الرابع أطل على المسلمين أقوام غرباء، يدعي بعضهم أنه من "السلالة النبوية الطاهرة" نسل الحسن أو الحسين أسباط رسول الله، وآخرون استحوا واكتفوا بالقول إنهم من العلوية، بخاصة سلالة أكبر أبنائه بعدهم (محمد) وأمه ليست فاطمة الزهراء! بل هي من بني حنيفة، لما أخذوها من قومها مع السبايا، في المعركة ضد مسيلمة الكذاب في الدرعية حاليا، لذا يسمون ذلك الفقيه العالم ابن الحنفية. واضافة لذلك برزت في فترة تفكك البلاد الإسلامية، جماعات تدعي انها من نسل العباس أصغر أعمام رسول الله، ولكنها ليست من ذرية أبو جعفر المنصور.

شرح لهما الرجل ان الحقبة من منتصف القرن الثاني (هـ) حتى منتصف القرن الرابع، كانت زمن البلايا على نسل السيدة فاطمة بنت محمد عليهما السلام. ففي بداية تلك الفترة توفي العالم الجليل جعفر بن محمد، حفيد الابن الوحيد لابنها الحسين، الذي يلقبونه الصادق لضبطه الأحاديث النبوية الصحيحة، والذي يجله كافة أهل السنة أما الشيعة فيقدسه بعضهم ويجعله قرب درجة الألوهية. وقد أنجب عدد كبير من الذكور مات أكثرهم في حياته والبقية لم يعقبوا، وحتى أكبر أبنائه (موسى الصادق) بعد وفاته انقطعت ذريته، لكن حشد من الروافض الأفاقين مازالوا يدعون أنهم من نسله، وحبذا لو انتسبوا لآبائهم الحقيقيين فذلك أشرف لهم، لكنهم أبوا إلا التمسك بعلامات تافهة. فكم من أب صالح ولده زنديق، أو ابن مؤمن وأبوه كافر، وفي كتاب الله الكريم سرد للنبي نوح وولده، ولإبراهيم

عليه السلام وأبوه، لكن أعداء الله يرفضون قبول الحق. لقد كان جعفر الصادق علامة في فقه الإسلام، وكان يتداول مع أبو حنيفة ومالك صاحبي أول المذاهب، قبل الشافعي وابن حنبل، وهو الذي أجاز العمل بالاجتهاد اقتداء بما فعله الفاروق رضي الله عنه. وبانقضاء ذرية الصادق يجزم الكثير بعدم صحة من يدعون انتسابهم للحسين بن علي رضي الله عنه، لكن المنافقين لا يعلمون ويريدون التكسب الدنيوي بادعاء الانتساب للصالحين، مخالفين سنة الله في ان الكافر قد يلد مؤمن، والمؤمن قد يلد الزنديق الخبيث. ومن دلائل كذبهم أنهم بعد ان نكب هارون الرشيد البرامكة، تقدموا اليه بدعوى ان جعفر الصادق، رأى في المنام جده أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) وأخبره عن موضع دفنه! وذلك جنوب "تل النِجف" غرب الكوفة، فوافق لهم ان يقيموا نصب عليه. بدون سؤالهم عن كتمان ذلك لعشرات السنين، ولماذا لم يخبروا جده المنصور عن ذلك في حينه؟ ومن المعلوم للجميع ان علي رضي الله عنه، لما شج رأسه ابن ملجم فجراً مات بعد ساعات، فصلوا عليه الظهر وخرجوا لدفنه. لكن عاصفة شديدة هبت عليهم من رمال جنوب الأنبار، فنزلوا للعصر وهرب البعير الذي عليه التابوت، ورغم البحث عنه في كل مكان إلا انهم صائمون ومتعبين فعادوا للكوفة ليلاً. وشاع بين الناس ان جثمانه الطاهر رفع للسماء، وعند آخرين ان بعض الرُحّل وجدوا البعير، وعليه الصندوق الخشبي الثمين وظنوا ان به دراهم، ولما فتحوه وجدوا الجثمان الطاهر فدفنوه في محله. وبنيت الحوزة هناك في تسعينات القرن الثاني، والعقلاء يتساءلون عما حل بالصندوق بعد قرن ونصف من الزمن، في الشمس والمطر والرياح العاتية، أما البسطاء فيكتفون بلعق تراب الحوزة ولا يكلفون أنفسهم عناء التفكير.

أما نسل الحسن بن علي رضي الله عنه، فكانوا يلاقون الهوان من ذرية شقيقه الأصغر (حسين) ويسبونهم ويدعون عدم ولايتهم، لأن أباهم تنازل عن القتال ففقدوا أي حق لهم في الرئاسة والتعالي. وفي تلك الفترة حلت بهم نكبة المنصور ضد الزكي، وبعدها بربع قرن نكبهم الهادي في فخ كما أسلفنا، مما أدى الى اختفائهم بالقتل أو الهرب لمناطق نائية، سواء في جبال الحجاز أو الحبشة واليمن وخراسان وحتى عندكم في نجد. ثم أشار الداغستاني للعم زيد، مبيناً ان انقسام بلاد الإسلام إلى ولايات متنافرة، بعد استيلاء الديلم على عاصمتي العباسيين (بغداد وسامراء) جعل كثير من الولاة يستقلون بحكم مناطقهم. وعلى حين غرة ظهر كثير من الناس يزعمون أنهم طالبيون، يتوقون للإمارة وتولي السلطة في المناطق النائية، ولم يكن البسطاء يعرفون ان الإمام علي بن أبي طالب، له أولاد من غير السيدة فاطمة بنت المصطفى عليهما السلام، وكل من صاح في الملاء أنه طالبي ظنوه من "السلالة النبوية" الشريفة. وفي الخمس سنوات التالية لقتل الديلم الخليفة المتوكل، قامت في شرق البصرة حركة الزنج بقيادة رجل يدعي انه علوي (إسماعيل بن يوسف) تجمع حوله العبيد والمماليك، وقادهم مع شراذم البشر في عمليات لصوصية،

وأخذوا يشطرون (يقطعون) الطرق في جنوب العراق، وسماهم العامة "الشطار" أدخلوا الرعب في قلوب المسلمين. وخلال أقل من ثلاث سنوات كان أذاهم قد امتد للحجاز، بل دخلت أفواج مسلحة منهم مكة، ونهبت وقتلت الحجاج وسرقت موجودات الحرم، بعد ان انضم لهم حشد غفير من الأعراب والأحباش والزنوج، وفجاءة مات ذلك الدعي فأخمدت نيران فتنته. إلا ان بعض شررها قد التهب بعد سنوات، عندما قال حمدان القرمطي انه من نسل محمد بن إسماعيل حفيد جعفر الصادق، وما هو إلا مجوسي آخر يحارب الإسلام بادعاء دفاعه عن ذرية بنت النبي! ثم في نفس تلك الحقبة (مطلع النصف الثاني من القرن الثالث) ظهر عندكم في نجد شخص هو الأخيضر ابن الأخضر، يدعي أنه من سلالة موسى الجون، الذي يقول البعض انه أحد شهداء نكبة فخ، ويقول آخرون انه لم يحضر فخ، بل مات في المدينة ودفن في البقيع أو سويقة، وخالفهم آخرون بأنه توفي في الكوفة وقبره يزار هناك. والجون (الأسمر) ثابت انه من ذرية الحسن بن فاطمة الزهراء، لكن لم يثبت ان له عقب خلال المائة سنة بعد وفاته، وأحوال من يدعون انتسابهم له مجهولة. وبذلك فإن الجهالة تحيط بكل من يدعون الانتساب لشهداء فخ من ذرية الحسن، وكذلك من ينتسبون لذرية علي الابن الوحيد للحسين، الذي خرج من رحم ابنة أخبث خلق الله (يزدجرد) وهم يدعون خروج أبيه من رحم ابنة خير الخلق!

أشار الرجل للعم زيد لكي يبين ما لديه عن الأمر، لكنه لم يكن مستريح لتعابير الداغستاني، بخاصة لجرأته على التشكيك في الأنساب التي ينبذها العقلاء، ولم يشاء ان يساهم معه في ذلك الأمر، بل كان يطمح فقط لسماع ما لديه، ويأخذ منه ما هو بادي الصواب ويترك ما خفيت حقيقته. لذا أجابه أنه سمع من قرابته القليل عن الأخضيريين، الذين تواجدوا في شرق الدلم قبل ألف سنة، فسارع الرجل لمقاطعته بالقول انه وأسرته في تلك المنطقة منذ العصر الجاهلي، لذا فلا بد ان لديهم معرفة كافية، عن حقبة الأخيضريين الذين حكموها لأكثر من قرنين، وامتد نفوذهم في أقصاه لكافة البلدات من الأفلاج حتى سدير. أعرب العم عن امتعاضه من المقاطعة وطلب منه التريث، ثم بين له ان أسلاف سبيع (بنو عامر بن صعصعة) تواجدوا هناك منذ قبل الإسلام، لكن سبيع بداء تأسيسها في القرن السابع الهجري. وقال له ان ما نمى لعلمه هو تكون نظام للدفاع عن نجد، ضد غارات الخوارج في العصر الأموي، حيث تُغير على المنطقة عصابات قادمة من العراق، تقطع الطرق وتروع الآمنين وتنشر الفساد، فجاء من دمشق جيش صغير زمن ابن مروان، للقضاء على عصابة لصوص نجدة بن عامر الحنفي، الذي جعل اليمامة وكر لرفاقه. وعادت البلاد بعده لسيطرة العقلاء من بني حنيفة، يعاونهم رجال من قحطان الواسعة، ويخدمهم فلول من قبائل العراق النازحة بالأنعام زمن الخصب. وفي منتصف القرن الثالث جاء قوم من الحجاز لخرج اليمامة ينتسبون لذرية السلالة النبوية الطاهرة، واجتمع البعض عندهم وقبلوا تدخلهم في أحوال الأمن والقضاء، حيث اتسم أكثرهم

بالورع والتفقه الشرعي، وقبلوا اعطائهم الزكاة. ورغم انهم على مذهب الإمام زيد بن علي، وينادون للصلاة "حي على خير العمل" إلا ان غالبية السكان رضوا بأحكامهم، فلم يكونوا من الشاتمين للصحابة الكرام وأمهات المؤمنين، وكان كبيرهم محمد وهو يميل لسمرة البشرة، ويسمونه الأخيضر في اللهجة الدارجة، وتعاقبت ذريته على الحكم بعده. وفي القرن الرابع حدثت فتن في العراق والقطيف، وجاء قوم كريهون هم القرامطة لليمامة، فدفعهم الأخيضريون لبعض الوقت، لكن لما تغلبوا عليهم رضخوا لهم، وقد أبغضهم النجديون لسوء عملهم. بخاصة لما آذوا الحجاج القادمين من الشرق، كما أحضروا أجزاء من الكعبة المشرفة، وأمروا الناس بالتعبد عندها فأبوا ذلك وقاتلوهم، فانتقلوا بها لمقرهم في الجشة. وبقي الأمر على ذلك حتى أواخر القرن الخامس، حيث تشتت أمر الأخيضريين واختفوا فجاءة كما ظهروا أول مرة.

بعد ذلك أصبح حكم وسط جزيرة العرب (العارض) في يد أبنائه، سواء من أهل اليمامة أو الهفوف، حيث كان التواصل وثيق بين المنطقتين، وتربطهما صلات تجارية وزراعية ورعوية، وتوجد آنذاك واحات متقاربة بين المنطقتين، والبعض يرى ان سيح مياه الخرج والأحساء متشابه. لكن ما أساء لقومنا هو ان من جاءوا بعد المنتسبين للسلالة النبوية، كانوا هم أيضاً على مذهب التشيع المخالف لكتاب الله وسنة نبيه، إلا انهم لم يكونوا روافض مجوس، يتكلمون عن خلق الحسين لله تعالى سبحانه عن ذلك الإفك. فقد كان العصافرة يتحاشون اللغط في أمور الصحابة أو أمهات المؤمنين، كما لم يذكر لنا السلف إجبار أهل السنة على شعائر الأذان أو الصيام والحج بطريقة الروافض، فقد كانت كثير من المساجد تقيم صلاة العصر، ولا يذكر في الأذان والإقامة ان علي ولي الله. ولا يفرض على أحد ممارسة سفاهة عاشوراء، حيث يضرب الروافض رؤوسهم بالخناجر، حتى تسيل دمائهم على الطريق، بدعوى انها تكفير عن خذلانهم الحسين رضي الله عنه. وثبت عدم صحة مقولة ان الناس على دين أمرائهم، فمعظم بني عامر في وسط جزيرة العرب، لم يتشيعوا مثل الرؤساء طيلة ثلاثة قرون، حيث كانت نجد والحجاز واليمن والشام ومصر والعراق وافريقية الغرب، يحكمها المتشيعة والروافض والباطنية، من اسماعيلية ومكرمية وبهائية وحشاشون. ولما جاء الصليبيون عجز الفاطميون عن صدهم، فقتلوا آلاف المصلين في المسجد الأقصى بالقدس، وآنذاك انكسر نفوذ الباطنية وتم اخراجهم من الشام ومصر، وشارك أسلافنا مع الأكراد في تحرير بيت المقدس، بعد ان استحله الصليبية لعشرات السنين. آنذاك انكسر النفوذ الشيعي عن العارض، وبقيت له مكامن في القطيف والأحساء، وبقية الساحل الشرقي تخلصت منه، أما مسقط المنزوية في الركن الجنوبي الشرقي، فقد استمر حكمها في يد أباضية (خوارج) عمون الذين لا يبالون بالسلالة الشريفة. أما في العارض فإن ملامح التشيع، الذي فرضه الحكام البويهيون والديلم، ورفضه أهل البلاد المالكية، زال معظمها وبقيت آثار طفيفة منها. كان بعضها

يتعلق بتعظيم بعض المتدينة أهل العمائم الملونة، القادمين من العراق واليمن ويتوجه لهم ذوو الحاجات لطلب الشفاعة، أو جلب الخير والتوسل بهم لقضاء الحاجات الدنيوية. ومظهر آخر هو تكريم أضرحة بعض الأخيار، والتعبد عندها ظناً من البسطاء أن مشاهد ومزارات الصالحين أماكن مباركة يستجاب فيها الدعاء، كما كان أقوام يقدمون الهدايا والنذور للقائمين عليها. واستمر ذلك رغم انكار الغالبية له، حتى قبل قرن من الزمن، ولما عجز حكام العارض من تميم عن نبذه، قيض الله ان يتولى الأمر ابن سعود المريدي ذلك، في الدرعية وانتهي في زمننا هذا بالكلية.

ساد الصمت لبرهة ولما شعر العم زيد انهم يودون ان يكمل حديثه، قال انه في مطلع القرن العاشر، بعد ان تكونت قبيلة سبيع من عشائر مختارة أصلها من بني عامر صعصعة، حلت بوسط وشرق البلاد كارثة كبرى. كان الحكم في يد الجبورية ولهم علاقة وثيقة مع السبعان، وقد علم الناس ان بعض سفن الصليبيين الضخمة، الخارجة من غرب الهند قد اشتبكت مع بحارة عُمان، الذين يخرجون في سفنهم الصغيرة السريعة، ويستردون بعض منهوبات الصليبية من مسلمي الهند. وكان جدنا الأكبر (سعد بن حماد بن علي الجبري) مع لفيف من قرابته في الحاير ورماح وليلى ونعام، على علاقة وثيقة مع الحاكم (ابن زامل) الجبري، ويمارسون الغوص في المياه غير العميقة في خليج فارس (العرب) قرب الشارقة ورأس مسندم. وفوجئوا ذات يوم بسفن عليها رايات الصليب تقترب من الشاطئ، وتطلق نيران نحو المنازل في مظهر مروع لم يروه من قبل، ونزل منها رجال في زوارق صغيرة مدججين بالسلاح. لم يجسر أحد على مقاومتهم بل فروا بعيداً، وتقدم الأعداء للمنازل المتفرقة القريبة من الساحل، يقتلون ويحرقون وينهبون ثم عادوا في مراكبهم نحو السفن، وغادروا نحو البحر العالي. وبعد أيام بلغهم ان ابن زامل كان عائداً في سفينته، والتحم مع الصليبيين واستشهد فقرر السبعان تولي الأمر بنفسهم، وكانوا غواصين مهرة فتربصوا للزوارق الصغيرة، التي تحمل ستة من العسكر منهم اثنان للتجديف، كانوا يتسللون من تحت الماء ثم يدفع بعضهم الزورق فينقلب، ثم يبدأون في طعن الصليبية أسفل البطن بالخناجر المعقوفة، فتتجمع عليهم صغار الأسماك الجرجور وتلتهم أمعائهم. وإذا لاحظوا ان أحدهم يريد الهرب سارعوا للإجهاز عليه، وهم يصيحون على الجد سعد لكي يخثل (يشق) أسفل بطن الصليبي، حتى أنهم صاروا يعرفونه بلقب خثلان الجبري. كانت المقاومة غير متكافئة مع بطش الصليبية، بخاصة لما تعاون معهم قوم من امارة هرمز على الضفة الشرقية لذلك البحر، كما ان نفر من أهل مسقط تهادنوا معهم، وسمحوا لهم بإقامة قلاع برتغالية، لصد ما يسمونه غزوات القراصنة العرب. وكان أولئك الغزاة بقيادة ظلوم غشوم جبار، يدعى البكيرك (البوكيركو) يبغض المسلمين العرب والهنود، ويدعي ان جده كان من عتاة المساهمين في إبادة المسلمين بالأندلس، لذا غادرهم وتوجه غرباً لبحر القلزم، بقصد النزول في جدة

ومن ثم التوجه لتدمير الكعبة المشرفة ثم مثوى المصطفى، لكن الله أحبط كيده وهبت عاصفة عاتية دمرت سفنه. ولما بلغ الخبر سلطان بني عثمان في القسطنطينية (اسلامبول) جاء بنفسه في جيش عظيم لمصر، وجعل آل أبانمي من ذرية الحسن بن علي حكام للحجاز، وهؤلاء هم من سألتكم عن أصولهم؟

تبسم الداغستاني ودعا الله للعم زيد بالمزيد من المعرفة، حيث ان بيانه الموجز لا يشفي الغليل ولا يبين ما جرى لأمة الإسلام منذ تسلط الديلم على الخلافة العباسية في منتصف القرن الثالث، فناشده رفيقهم العتيبي ان يوضح لهم الأمر. قال لهم الرجل ان الحوادث المسيئة في زمن الديلم، دفعت قوم من بني بويه يسكنون جنوب جبالهم، لأن يتجهوا للعراق ويسيطروا على خلفاء بني العباس المستضعفين، لكنهم كانوا أيضا متشيعة مثل سابقيهم، فسمحوا بإقامة مزيد من الحضرات والمزارات والمشاهد، عند قبور من يعتقد أنهم من السلالة النبوية، لكن معاملتهم مع المسلمين السنة كانت أقل سوء بكثير من سابقيهم. ازدهرت المقامات في كربلاء والنجف ومشهد، وأصبحت كافة الأقاليم العباسية في يد قادة من الشيعة، مثل سيف الدولة الحمداني (صاحب المتنبي) حاكم شمال الشام، وكذلك في الحجاز ونجد واليمن والموصل. لكن في تلك الحقبة قيض الله للإسلام، ان ينبري عدد من أبنائه للدفاع عن السنة النبوية المطهرة، وفي بلادنا (داغستان) الواقعة على الساحل الغربي لبحر الخزر (قزوين) كنا نشارك في الحركة المدافعة عن السنة، التي ظهرت على الساحل الشرقي، وما ورائه من بلاد الترك المؤمنين (تركمان) منذ منتصف القرن الثالث. لقد ظهر آنذاك ائمة علوم الحديث ذات المنهج العلمي الدقيق، أبو إسماعيل البخاري والترمذي ومسلم والطبري والطبرستاني أما الطبراني فهو شامي، الذين أنفقوا وقتهم وفكرهم وجهدهم لتدوين وحفظ السنة النبوية، ودحر ضلال المدلسين الذين يشوهون الإسلام، بإدخال البدع والخرافات. لقد وضعوا تصنيف دقيق لأحاديث السنة النبوية، تضمن معرفة ما هو متفق على صحته أو صحيح لدى البعض، وما هو حسن أو ضعيف أو منكر، كما تم سرد سلسلة رجال كل حديث، بحيث يدرج اسم كل من ورد فيها، فتكون سمعنا من ----- الذي سمع من ----- الذي سمع من ---- الذي سمع من المعصوم عليه الصلاة والسلام. وكانت تلك السلسلة الموثقة تحوي خمسة إلى ثمانية رجال، اجتازوا فحص الجرح والتعديل، فلا يقبل ان يكون فيها وضاع أو مدلس، بل جرحوا من كذب مرة واحدة ليس على إنسان بل على بهيمة! ولا بد من ضبط تتابع السند ودقته، فإذا كان فيه رجلان في بلاد متباعدة لم يلتقيا في حج أو سفر، اعتبروه ضعيف وكذلك الأمر لو ان أحد أعضاء التسلسل مات قبل مولد رفيقه، فيعتبر انضباط السند مجروح ولا يحكم بصحته. إلا ان أكثر شيوخ الحديث نزهوا أنفسهم عن جرح من كانت له صحبة مع النبي، وليس مجرد مرافقة سفر أو مشاهدة بعيدة، وبذلك ضبطوا تصنيف الأحاديث الصحيحة واستبعدوا المنقطع أو المرسل، فغدت لا تتجاوز الثمانية آلاف،

وكانت قبل ذلك مئات الألوف، حيث الروافض والمغرضون يضعون عبارات من عندهم تفيد قضاياهم الفاسدة. ولقد تعرض أولئك العلماء للكثير من السب والتجريح، من الشيعة والملاحدة للطعن في صحة منهجهم، بخاصة لما ضعفوا سند حفيد الحسين بن فاطمة عليهما السلام، وهم يعتبرونه إمامهم السادس ويلقبونه الصادق، لأنه كان زمن الأمويين يتحدث بأمور تخالف نصوص كتاب الله. لم يكتفوا بذلك بل أوعزوا آنذاك لأحد الدارسين، ان يضع مخطوط يشبه صحيح البخاري، يضمنه أحاديث التشيع والتقية وبغض أهل سنة المصطفى، وتقديس المدعين بانحدارهم من سلالة النبي. فوضع الجليني الخرساني لهم كتاب الكافي، وحفظوه في مزار اقليم الري (بين طهران واصفهان) لكنهم في العصور التالية أقروا بعدم صحة بعض ما ورد فيه، وقديماً قالت العرب "إذا كنت كذوبا فكن ذكورا؟"

استأنف الرجل حديثه بقول ان ذلك القرن 4، شهد دفق عظيم من خلط الأنساب، بين المسلمين العرب وغيرهم إلى حد يثير الدهشة، إلا ان ضياع المعارف والحصول على العطايا والهبات، جعل الكثير ينتسبون لغير آبائهم. وسأوجز لكم ثلاثة يعرفهم الجميع، أولهم الشاعر الشهير أبو الطيب، الذي يعرفه الجميع راعي شياه في بادية السماوة، ووالده سقاء على حماره في البصرة والكوفة، وقد حباه الله منذ صغره بقدرة شعرية فذة، فلم يكتفي بالقول أنه من الذرية النبوية، بل ادعى انه نبي وليس من السلالة فقط حينما قال:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي -------- وبنفسي فخرت لا بجدودي

أنا في أمــة تــداركــها الله --------- غريـــب كصــالح في ثـــمـود

ثم هناك كافور الحبشي الذي انتهز ضياع الحكم بعد موت ابن طغج، فادعى أنه اخشيدي واستولى على السلطة في مصر، فجاءه الكثير يطيعون ويمدحون بغية الحصول على عطاياه، ومنهم ذاك المتنبي الذي نظم القصائد في تمجيده، وسماه أبا المسك والأستاذ الفقيه العالم، ولما نقصت المنح سبه بأقذع الأبيات، ومنها:

من علم الأسود المخصي مكرمة ------- أقومه البيض أو آبائه السود

وأذنـــه في يـد النخاس دامية ------ أو قدره وهـو بالفلسين مردود

أكلما خان عبد السوء سيده -------- او اغتاله لقي له في مصر تمهيد

لا تشــتر العبد إلا والعصـا ------ معه ان العبيد لأنـجاس منــاكيـد

وقوله فيه أيضاً:

وتعجبنى رجلاك في النعل ------- إني أراك ذا نعل إذا كنت حافيا

غدر وإخلاف وخسة وجبناً --------- أشخص لحت لي أم مـخازيـا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيـدة --------- ليضحك ربات الحداد البـواكيا

ومنذ مطلع القرن الرابع الذي حذر منه المعصوم، أنه زمن الأفاقين الكذابين ظهر الكثير ممن يدعون النسب للسلالة الشريفة، بغية الحصول على الهبات من ذوي النفوذ والسلطان. إلا انهم كانوا لا يجرؤون على طلب الولاية العليا، بل يتسولون من قادة العسكر منحهم إمارة محدودة، لقاء تعهدهم بجلب ولاء العامة لهم، والدعاء لهم على المنابر وتمجيدهم. بخاصة الحكام العجم من ديلم وبويه، ولا يقبل أحد منهم تأكيد نسبه للسلالة الشريفة، وبضاعتهم أسطوانة حديدية بداخلها ورقة متهالكة مطوية، فيها أسماء أجدادهم الذين منهم أربعة مجهولين. لم يذكر أحد أنهم كانوا من الفقهاء أو المحدثين أو القضاة، بل يقال إنهم كانوا تجار أو فلاحين في مناطق نائية. ورغم حالهم المجهولة فقد عمد بعض الولاة، بخاصة ذوي الأصول غير العربية، للاستعانة بهم في مساندة مناصبهم المهتزة، فأسندوا لهم قيادة بعض المدن كخدام لهم! ومنحوهم الأموال والأنعام وأقطعوهم الأراضي العامرة، مما دفع المزيد من البشر لادعاء انهم من السلالة النبوية، ليحصلوا على مثل تلك الهبات المربحة. لذا عمد البعض لحراسة النسب آنذاك، بوضع سجلات لذرية من يعتقد انهم من ذرية السيدة فاطمة الزهراء أو علي، وإيقاف التدفق الهائل لمن ينسبون أنفسهم لذلك بدون وجه حق، لكن السيل طغى بعد قرنين من فخ؟ لذا كثرت الحوزات والحضرات التي تعمل على حماية السلالة، ثم تعين نقيب للطالبيين في العراق (السيد الرضي) وهو فقيه وشاعر فصيح، بداء يدون مشجرات للذرية الشريفة، حسب ما توفر له من معلومات موثوقة في أواخر القرن، رغم عدم التأكد من بعض ما سبق. وفي الشام تعين نقيب للأشراف العلوية، بعد ان كثرت الدعاوي الباطلة بالنسب لأمير المؤمنين، حتى ان بعضهم (نصيرية) جعلوه إلاه معبود، أما في مصر فقد أوكلوا لشيخ السادات، البت في صحة النسب للسادة الأشراف، لكن بعد ان طفح الكيل.

حلت النكبة الكبرى على أهل السنة والتوحيد، في الثلث الأخير من ذلك القرن الكريه، حيث انهت الدولة الفاطمية في القيروان (تونس) سيطرتها على كنانة الإسلام (مصر) التي بدأتها قبل عشرين سنة، بهجمات بحرية على الإسكندرية وصحراوية نحو الفسطاط. أردف الداغستاني حديثه عن تلك الدولة، بإشارة ان لديه أنباء من أسلافه عن مؤسس ذلك الكيان، وما إذا كان صاحبيه يرغبون سمع نبذة موجزة عنها، فوافقوا على ذلك. بداء حديثه بالقول ان النصف الثاني من القرن الثالث، شهد بروز شخصيات في سجستان وبلاد العجم، يدعي بعضهم التحاقه بالنسب النبوي الشريف، وقد جاء لبلدهم رجل مطارد من الناس على الضفة الشرقية لبحر الخزر، يتهمونه بالافتراء والزور، حيث يدعي انه

من ذرية (ناصر) أحد حفدة الحسن بن علي رضي الله عنهما. ولما سألوا عنه قيل انه يظهر سيماء الصالحين، لكن لا يوجد في ذرية المحض من يسمى ناصر، وقد تبين انه من أصول مختلطة من التركستان والروس، الذين هاجروا جنوباً قبل عشرات السنين. لذا فقد رفضوا إيوائه عندهم ونصحوه بالعودة من حيث أتى أو حث المسير مع أهله غرباً، فتوجه لبلاد الأكراد جنوب الأناضول الذين نبذوه. فذهب من هناك الى حمص في الشام، حيث اقتنع به بعض البسطاء في تلك البلدة، وصار يخطب في جامعهم ويعظ الحضور بطريقة محببة، لكنه لما طلب مبايعته ليكون والياً تغيرت خواطرهم تجاهه. فرحل لمصر ولم يجد القبول فتوجه غرباً لبلاد اللوبيك والموريك (ليبيا ومراكش) حيث يوجد حكام الأغالبة والرستمية، لكن العامة من الأمازيغ وهو مزيج من العناصر المحلية، اختلطت مع الوافدين من غوغاء روما الذين دمروها، ثم استمر انحدارهم جنوباً للدفء، وتزاوجوا مع المحليين وظهر ذلك العنصر الهجين. وجد الرجل عقول بسيطة تتقبل دعوى النسب المشبوه وتفتخر به، فعاد إلى اعلى بقعة قريبة من أوروبا، بناها افريكش قائد جيش الإغريق قبل مئات السنين، وسميت البلدة ثم القارة كلها على اسمه افريقية، ثم صار اسمها الآن تؤنس، ولما فتحها المسلمون بنوا فيها حاضرة القيروان. ثم قامت ذرية الرجل (عبيدالله بن عبدالله) ببناء سوق زويلة والمهدية بدعوى ان جدهم المهدي المنتظر، مازال يتحين العودة للأرض ليملأها عدلاً.. ثم بعد سنين استعانوا بأموال ورجال الأمازيغ، وقيادة جوهر الصليبي الصقلي، الذي فتح له مصر وبنى له قصر الجيزة غرب بحر النيل، بعدها عبر النهر وبنى هناك قلعة حصينة (القاهرة) شمال قطائع الفسطاط، ثم شيد جامع ضخم سماه على جدة سيده فاطمة (الأزهر الشريف) فاضطرب المسلمون من سنة ومتشيعة وروافض وعلوية ودروز. أوعز البويهيون لحوزات ومراقد جنوب العراق، اصدار محضر يفيد بعدم صحة ادعاء العبيديين أنهم نسل النبي، وماهم إلا باطنية يظهرون غير ما يبطنون، كما أمروا رجالهم في الحجاز ان يخطب على منابر الحرمين بذلك، والدعاء بالسؤدد للخليفة العباسي في بغداد. ثارت حفيظة الفاطمية ولم ينصرم ذلك القرن، إلا والشام والحجاز واليمن في قبضتهم، وأزاحوا عن مكة والمدينة الأشراف الموالين للعراق، ونصبوا حسني على الحرم المكي وحسيني في المدينة. قيض الله للمسلمين في منتصف القرن الخامس، ان يزيح عن كاهل بغداد بني بويه، وجاء قوم من حماة السنة لرعايتها وهم السلاجقة السنة، الذين كفوا عن النزاع مع الفاطميين، لما هجم الصليبيون على المسجد الأقصى، وتعاون كافة أهل القبلة لصد ذلك العدوان الوحشي من الرومان. في القرن التالي (السادس) تمكن الزنكية من إيقاع خسائر فادحة على الصليبيين في الشام، بخاصة لما حاولوا قطع طرق الحج، لكن تحرير الأقصى يتطلب اخراج الفاطمية من القاهرة، فتوجهت قوات المسلمين بقيادة الأيوبيين لمصر، وانقذتها من الباطنية الخبثاء وجرت موقعة حطين، وانحصر الوجود الصليبي في القلاع الساحلية المحصنة. بعد سنوات قليلة جاءت من الشرق أنباء مخيفة، بأن المغول قد خرجوا من

بلادهم (غرب الصين) وغزوا تخوم بلاد الإسلام، ثم وصلوا خوارزمستان وقتلوا السكان ونهبوا الممتلكات، وباعوا صغار السن للنخاسين. الذين أرسلوهم لبلاد العرب، حيث أسسوا بعد خمسين سنة دولة المماليك في مصر والشام، التي أوقفت الزحف المغولي الوحشي في عين جالوت. في أثناء تلك المعمعة بين حطين وجالوت، واضطراب أحوال العرب والمسلمين عند استهلال القرن السابع، ظهر على حين غرة من بين تلال ورمال تهامة، أعرابي لديه زراعة قليلة ومواشي هزيلة مع دهاء وقسوة. يقال له قتادة بن ادريس ذكر انه من سلالة الحسن بن علي، كان مثل من سبقوه يحمل أسطوانة حديدية، بداخلها ورقة بالية مطوية تحمل سلسلة أسماء أسلافه، وهي بينة ضعيفة حيث بينه وبين موسى الجون خمسة قرون، سرد عنها عشرة أجداد أكثرهم مجهولين. فهل يقبل ان تبقى الذرية النبوية خاملة لقرون، لم يعرف منها أحد كفقيه مميز، أو حافظ أو قارئ أو حكم عدل، بخاصة مع ظهور كثير من أدعياء النسب الشريف، ولم ينبري أحد من أجداده للذود عن النسب الطاهر. ومع ان هذا أمر ثانوي فقد أنبأنا الله ان الأب الصالح قد يخرج منه نسل فاسد، كما قال المصطفي لفاطمة ان تعمل صالحاً فلن يغني عنها شيء، ولو سرقت فسيقطع يدها مثل غيرها سواسية. إلا ان المعضلة في الأفعال وليس في النسب، فإن أول ما قام به قتادة عند ظهوره من المراعي، ان أعمل السيف في رقاب قرابته وعشيرته، ممن لم يطيعوه ويوافقوا قوله، كما سلب أموال الآخرين ليتقوى بها وليحقق مآربه. ثم توجه لحكام مكة (الهاشميون) وطعن في نسبهم وأنهم خدم للفاطمية وليسوا من سلالة النبي، وقتلهم واستولى على كرسي السلطة بدلا منهم. بعد ذاك انتهز وقوع حادثة مقتل أحد قرابته، في موسم الحج فصب جام غضبه الأرعن ضد حجاج العراق ثم الشام، وأمر جنوده بإحراق خيامهم في منى. فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ونهبوا أموال الحجاج، في البلد الحرام والشهر الحرام أثناء أدائهم المناسك، ولما توجه لعمل مثل ذلك مع الحجاج خارج مكة، وقفت ضده الأميرة الأيوبية (الخاتون) وتوعدته، فخاف منها وعاد أدراجه خائبا. فهل من يفعل ذلك يمت بصلة للمعين النبوي، وقد قالت العرب قديما:

فعال من تلد الكرام كريمة ********* وفعال من تلد اللئام لئام

وشبه الشيء منجذب اليه ********* وأشبهنا بدنيانا الطغام

وبمثل هذه القسوة والإجرام وسوء التفكير وقلة التدبير، أقام لنفسه نظام حكم لا يتورع عن التعدي على رواد المشاعر المقدسة، وفرض الإتاوات على القادمين لها أو المقيمين فيها. وقد قال سبحانه في بعض الخلق، "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد". وبعدها سولت له نفسه ان يستولي على كرسي السلطة في المدينة النبوية، فتوجه بلصوصه إلى هناك، لكن حكامها (حسينيون) تصدوا له وأنزلوا به خسائر فادحة، فلجأ إلى عشيرته من بدو ينبع، لكن الجماز قاومهم ومنعهم

عن نهب البلدة لسنوات عديدة. وفي آخر عمره الكريه انقلب على ذريته وإخوته، لكنهم قتلوه وكفوا عن المسلمين شروره، ومازال نسله يتحكمون في بلاد الحرم حتى يومنا هذا. فقد قام بعضهم بالتعاون مع نقباء في مصر، وجمعوا حلي نسائهم وصنعوا مفتاح ذهبي، قدموه للسلطان العثماني سليم في بداية القرن العاشر، لما قدم للدفاع ضد هجمات الصليبيين على بحر جدة. وأقنعوه بعدم الحاجة للتقدم جنوباً في الأراضي القاحلة، وان يرسل معهم كتيبة من جنوده بالمدافع، وسيكفونه مؤونة الحرب على ان يجعل ولاية مكة والطائف فيهم بدلا من أبناء عمومتهم.

قبل ان يسترسل في كلامه أشار له العتيبي، وقال ما بالك يا بو عبد الرحيم تستفيض في التشكيك في الأنساب، وتكثر ذكر المثالب والمعايب في الحجازيين، حتى يظن البعض أنك شعوبي تكره العرب، أو إنك رافضي تبغض أهل بيت المصطفى؟ فتبسم الرجل مؤكداً ان الكثير يتقولون عليه أكثر من ذلك. وبين ان المعرفة القديمة بينهما لم تتح له الفرصة له ليوضح أنه رغم سكنى أجداده في أرض الداغستان لقرون عديدة، إلا انهم من أصول عربية عريقة، ينحدرون من ذرية أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ويسمون عشيرتهم "البكريون" وهم من المولعين بحب النبي وأهل بيته، الثابت نسبهم له أما الدعاوى غير المثبتة فلا شأن لنا بها. ثم قال ان الناس في بلادهم يوقرون العرب عامة، وبخاصة مضر الشريفة ومنها قريش، ثم بني هاشم عشيرة المصطفى، وكذلك ذرية أعيان صحابته، والإمام الشافعي رحمه الله انتسب للهاشمية، ولم يدعي انه من نسل نبوي، ومكانته لا يجهلها عارف. وأردف بالقول انه يكرر ما في شريعة الإسلام ان الإيمان والخلق الصالح والجهاد لا تورث، وإنما تأتي هبة من الخالق سبحانه، ومن حقنا ان نسأل أولئك الذين ظهروا لنا في القرن الخامس، يدعون ان لهم إرث نبوي اكتسبوه بحق النسل غير المؤكد، عن رأيهم في قول المصطفى ان قرنه والذي يليه والثالث هم خيرة الناس، ويأتي بعدهم الكذابون والسُراق بكثرة وقلة من الصالحين. فليبينوا لنا ما قاموا به في حفظ السنة النبوية، وهل منهم من دون لنا صحيح الأحاديث، وهل منهم من كتب في الفقه مثل أبو حنيفة ومالك وابن حنبل؟ كما علينا ان نسألهم أين كان أسلافهم عند دحر روافض الديلم والبويه، وعند التصدي للأفاقين من قرامطة وفاطمية وخدمهم، ثم في محاربة الصليبيين والمغول والعثمانية، وهل ساهم أحد منهم في ذلك مع الزنكي والأيوبي وقطز وبيبرس وقنصوة؟ أو انهم مجرد متطفلين على الإسلام بدعوى الإرث الكاذب. كما قال سبحانه "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين" *وقد فسرها عليه الصلاة والسلام لأهل المدينة أنهم قوم من بخارى. عندها أبدى العم زيد بن عبدالله تضجره، ورغبته مغادرة المجلس والاكتفاء بما سمعه من طيب القول وسقيمه، وأخذ يردد أبيات من بائية الكميت المتشيع: ـ

بني هاشم رهط النبي فإنني ******* بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضت لهم من جناح مودة******* إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

بأي كتاب أو بأية سنة********* ترى حبهم عاراً علي وتحسب

ثم تحول لمسكنه ودعا رفاقه لشد الرحال نحو المشرق، حيث وصلتهم قافلة بها بضاعة من مصر.

بهذا نختم الفصل الرابع عشر من سيرة السلف، حيث ننتقل بعده لآخر فصول هذا الجزء (15) قبل ان نباشر في سرد صلب سيرة والدي رحمه الله وإياكم.